دفاتر السياسة والقانون المجلد: 14 / العدد: 02 (2022) ص ص: 328- 347

دور الأقليات النافذة والمستضعفة وأثرهما في تحريك دواليب الصراع الإقليمي والعالمي: من منظور قرآني وسوسيو-سياسي

The role of powerful and vulnerable minorities and their impact on moving the wheels of regional and universal struggle: A Quranic and socio-political view

عبد الرحمان بـابكر[1]

قسم الحقوق، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة علي لونيس "العفرون"، البليدة (02)

babekerabder@gmail.com

زازون أكلي

قسم الحقوق، كلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة علي لونيس "العفرون"، البليدة (02)

akli.zaoune@gmail.com

تاريخ الإرسال:2021/09/18 تاريخ القبول:2021/12/26* تاريخ النشر: 2022/04/15

الملخص:

أول ما نزل في القرآن هو سورة "العلق"، التي بدأت بكلمة "اقْرَأ"، التي تُعتبر المفتاح الوحيد لفك أسرار الكون وتفسير حركيات تاريخ البشرية، وتلخص قصة استخلاف الإنسان في الأرض، وما يترتب عنه من فساد وسفك للدماء.. وتعرّض القرآن أيضا إلى جدلية الأقليات والأغلبيات ضمن الصراع الإنساني.

ومن جهتهم يتفق علماء الاجتماع والأنثروبولوجيا أن أهم وأخطر أنواع الأقليات هي "الأقليات النافذة"، وهي على نوعين، "أقلية إصلاحية" تتمثل في الرُّسل وأتباعهم، و"أقلية إفسادية"، يُصطلح عليها قرآنيا بـ"الملأ المُستكبر" وفي الدراسات الحديثة بـ"الدولة العميقة". والصراع بين هاتين الأقليتين أزلي، بينما توجد بين الأقليتين فئة ثالثة فهي "الأقلية المُستضعفة" المُوظّفة في الصراع، وهي المجتمع المُتّسم بثقافة القطيع المُنقادٌ لإحدى هاتين الأقليتين الإصلاحية أو الإفسادية.

هذه الجدلية التاريخية هي في صلب إشكالية هذا المقال حيث تساءلنا: ما المقصود بالأقليات عامة؟ وما "الأقليات المُستضعفة"، و"الأقليات النافذة"؟ وكيف شخَّص وعالج القرآن مشكلة صراع الأقليات داخل المجتمعات، وفي المجتمع العالمي؟ وما هو دور هاتين الأقليتين في تغذية ديناميكيات الصراع الإقليمي والعالمي ماضيا وحاضرا؟ ؛

وقد افترضنا "أن التاريخ الاجتماعي السياسي للمجتمعات والدول قديما وحديثا يتلخص في تتالي سيرورة صدام الأقليات النافذة والمستضعفة". وتوسلنا للتحقق من صحة الفرضية، بالمناهج الاستقرائي والوصفي والمقارن.

الكلمات المفتاحية: عالمية الخطاب القرآني، الصراع الإقليمي والعالمي، الأقلية النافذة، الأقلية المستضعفة، النموذج الفرعوني والإسرائيلي في القرآن.

[1] ـ عبد الرحمن. صالح بـابكر: أستاذ مساعد (أ)، بكلية الحقوق والعلوم السياسية، جامعة البليدة 02، ليسانس من كلية الشريعة، جامعة دمشق 1983، وشهادة ماجستير اقتصاد إسلامي، في موضوع "ظاهرة التضخم النقدي وعلاقته بالديون في الفكر الإسلامي والغربي"، عام 1998 من المعهد العالي لأصول الدين، تخصص أصول فقه، من جامعة الخروبة الجزائر. توظف باحثا متفرغا بالمعهد الوطني للبحث في التربية في العاصمة، عام 1985-1999. حصل على دبلوم تربية من كندا في إطار تقييم البرامج والكتب المدرسية. حاليا مسجل لإنجاز بحث الدكتوراه في كلية الحقوق والعلوم السياسية جامعة البليدة 02، بعنوان: "النظم القانونية لدى الأقليات وإشكالية الصراع في العالم"، إشراف الدكتور زازون آكلي(أستاذ محاضر(أ)).

Abstract: *The first thing that was revealed in the Qur'an is Surat Al-Alaq, which began with the word "Read", which is considered the only key to deciphering the secrets of the universe and explaining the dynamics of human history, and it summarizes the story of man's succession on earth, and the resulting corruption and bloodshed. The Qur'an also exposed the dialectic of minorities and majorities within the human struggle.*

For their part, sociologists and anthropologists agree that the most important and most dangerous types of minorities are the "influential minorities," which are of two types, a "reform minority" represented by the messengers and their followers, and a "corrupt minority," which is termed in the Qur'an as "the arrogant public" and in recent studies "the state" deep". The conflict between these two minorities is eternal, while between the two minorities there is a third category, which is the "vulnerable minority" employed in the conflict, a society characterized by the culture of the herd that is submissive to one of these reformist or corrupting minorities.

This historical controversy is at the core of the problematic of this article, where we asked: What is meant by minorities in general? What are the "vulnerable minorities" and the "powerful minorities"? And how did the Qur'an diagnose and treat the problem of minority conflict within societies, and in the global community? What is the role of these two minorities in feeding the dynamics of regional and global conflict, in the past and present?

We have assumed that "the socio-political history of societies and countries, ancient and modern, can be summed up in the successive process of clashing powerful and vulnerable minorities." And we begged to verify the validity of the hypothesis, using inductive, descriptive and comparative methods.

Keywords: *Universality of the Qur'anic Discourse, Regional and Global Conflict, Influential Minority, Vulnerable Minority, Pharaonic and Israeli Model in the Qur'an.*

مقدمة:

يجدر التنويه ابتداء أن هذا الموضوع يندرج ضمن موضوعات علم السياسة من منظور الفكر الإسلامي، أو ما يسمى اصطلاحا بـ علم "السياسة الشرعية"، كما يندرج أيضا ضمن العلوم السياسية بما فيها علم العلاقات الدولية، فضلا عن علم الحضارة وعلم النفس الاجتماعي وعلم الأنثروبولوجيا بتخصصاتها الفرعية، ثقافية واجتماعية وسياسية، خاصة منه ما تعلق بتحليل النظم السياسية وأنماط الحكم، والمجتمع السياسي والمدني، والاقتصاد السياسي. ومنه تأتي أهمية الموضوع الذي يمكن تناوله من عدة منظورات تخصُّصية، ضمن الحقول المعرفية الثلاثة التالية: الفكر الإسلامي، علم القانون، وعلم الاجتماع السياسي.

أ)- أهمية الموضوع: إن مشكلة الأقليات وما يتفرع عنها من صراع، طائفي ومذهبي وإثني في العالم بصفة عامة، والإسلامي بصفة خاصة، من المواضيع التي أثارت الرأي العام العالمي مؤخرا حتى أصبح حديثَ الساعة، نظرا لما يطرحه من حساسيات ويثيره من مشكلات اجتماعية وحروبا طائفية وتدخلات دولية...

لقد زُرعت إسرائيل في قلب الدول العربية "فلسطين"، في ظل عُصبة الأمم باسم حقوق الإنسان وحماية الأقليات، واحتُلت العراق من طرف الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا كذلك بنفس الهدف، وقُسِّمت السودان دولتين جنوبية وشمالية، وهُدّدت بالتدخل في دارفور باسم حماية الأقليات، وأصبح أي دولة من الدول في الوطن العربي والإسلامي معرضة سيادتها للاختراق والتدخل من قبل الدول العظمى، من بينها الجزائر، باسم حقوق الإنسان وحماية الأقليات!!.

إن الموضوع بكلياته يتحكّمه نوعان من الأقليات، نوع من "أقليةٍ مُستضعفة ومغلوبة على أمرها"، مُوظفةٌ من قِبل عِلِّية القوم، أو المصالح الكبرى للدول العظمى، ونوع آخر هو "الأقلية المُسيطرة"، وتسمى بـ"الأقلية الاستراتيجية النّافذة"، أو "الدولة العميقة"، وهذا النوع من الأقليات هو الأخطر، وحول هاتين الأقليتين يتمحور تحليل هذا المقال.

نظرا لخطورة الموضوع المتعلق بإشكالية الصراع التي قضّت مضاجع المفكرين والعلماء، يفترض محرر هذ المقال أن المنهج الوحيد الذي يعالج هذه المُعضلة، هو المزاوجة التكاملية بين الرؤية القرآنية للعلاقات الإنسانية والعالمية في مستوياتها الميكرو والماكرو، والمقاربات السوسيولوجية المعاصرة، لدراسة هذه الظاهرة التي فرضت نفسها على العالم الإسلامي أكثر من أربعة عشر قرنا!!.

وقد تعرض كتاب الله إلى هذين النموذجين من الأقليات: نموذج يُمثل الأقلية المُهمّشة أو المُستضعفة المغلوب على أمرها، والأخرى الأقلية النافذة أو المُهيمنة المستكبرة، وقد اصطلح عليها القرآن في أكثر من مكان بلفظ **"الملأ"**، ولنا في قصة نبي الله موسى وقومه، أمام فرعون وملئه أحسن أنموذج تاريخي قرآني... لقد ظلت الأقلية المُستضعفة من بني إسرائيل في عهد نبي الله موسى تحت وطأة الظلم والاستبداد على أيدي كلٌّ من فرعون وهامان وقارون مدة طويلة، وهم يسُومونهم سوء العذاب، وفي الأخير انتصر موسى وقومه المُستضعف في هذا الصراع المُستحكم بين هاتين الأقليتين، وقد ساق لنا الله عز وجل في كتابه الكريم هذا النموذج الفرعوني باعتباره النموذج الذي لازم البشرية طيلة القرون القديمة والوسطى والحديثة والمعاصرة!!

ب)- إشكالية المقال: إن السؤال الذي يفرض نفسه يتمثل فيما يلي: ما المقصود بالأقليات بصفة عامة؟ و"الأقليات المُستضعفة"، وكذا "الأقليات النافذة" بصفة خاصة؟ المعروفة قرآنيا بـ"الملأ المستكبر" وسوسيولوجيا باسم "الدولة العميقة"؟ وكيف شخَّص القرآن الكريم وعالج موضوع صراع الأقليات داخل المجتمعات، وفي المجتمع العالمي؟ وما هو دور هاتين الأقليتين في تغذية ديناميكيات الصراع العالمي ماضيا وحاضرا؟

بينما نفترض "أن التاريخ الاجتماعي السياسي للمجتمعات والدول قديما وحديثا يتلخص في تتالي سيرورة صدام الأقليات النافذة والمستضعفة"

ج)- منهجية المقال: إن منهج البحث منهج استقرائي، وصفي ومقارن، وهو قائم على قراءتين: الأولى، قراءة تستقرئ القرآن الكريم، والثانية تستقرئ الحركيات البشرية، الفلسفية والنفسية، والاجتماعية والسياسية، المفسرة لطبيعة تلك الأقليات وتحلل وتصف وتقارن أدوارها في ديناميكيات الصراع العالمي قديما وحديثا.

د)- خطة المقال: قسّمنا هذا المقال إلى مبحثين: نتعرض في الأول إلى فكرة عالمية القرآن الكريم، مع طرح تساؤلات حول أهمية الأولويات التي بموجبها تمّ نزول الوحي، وكذا الحكمة التي تمَّ بموجبها ترتيبُ سور القرآن صعودا ونزولا، مع التّعرض إلى اكتشاف أسرار تتعلق بخطورة الصراع العقدي الفكري والاجتماعي السياسي والاقتصادي، على المستويات المحلية والوطنية والإقليمية والدولية، وما يترتب عنه من فساد في الأرض وسفك للدماء، في حين يتعرض المحور الثاني، إلى ماهية الأقليات، ومكانتها في المجتمع الإنساني، وفي كتاب الله، وإلى دور الأقليات

النافذة في تحريك دواليب الصراع في العالم القديم والحديث، مع تقديم نماذج قديمة كأنموذج الصراع الفرعوني ومَلئه، ضد موسى وقومه وأنموذج معاصر مُمثّلا في اضطهاد الأقليات في العراق تحت الاحتلال الأمريكي على يد جماعات الإجرام أو الإرهاب الداعشي.

أولا: عالمية القرآن وإشكالية الصراع العالمي (القديم والمعاصر):

يتناول هذا المحور عالمية الخطاب القرآني، والتراتيب الزمانية والمكانية المعروضة في كتاب الله، وعلاقتهما بمقصد الاستخلاف في الأرض وإشكالية الصراع الإنساني في مختلف الأزمنة والمجتمعات.

1-1)- عالمية الخطاب القرآني:

يقول الدكتور طه جابر العلواني (1935-2016): "لقد كتب العلماء في فضل كتاب الله آلاف الكتب، بل ملايين"(طه جابر العلواني، 2006، ص 29). فالإنسان المتدبر لآيات الله في القرآن يكتشف الكثير من القوانين الكونية في الآفاق والأنفس، والمجتمعات والحضارات، ويزداد يقيناً بأن هذا كلام الله خالق هذا الكون، خاصة من حيث إحاطتُه من قديم بقصة البشرية في الأرض، وإعطائه صورا عن مشاهد لمستقبلها سعادة وشقاء، مُستوعبا الأزمة والأمكنة، ومنه نتساءل: "كيف تمّت عملية اختزال الزمان والمكان في القرآن الكريم؟":

1-1-1)- عملية اختزال الزمان والمكان في النص القرآني:

إن الفترة الزمنية القصيرة جداً، والتي هي فترة نزول الوحي على الرسول (632-571م)، هي التي أقصدها بـ "عالمية القرآن الكريم" واختزالها للزمان والمكان، إن عالمية القرآن تمتد ابتداء من تاريخ أمم ورسالات الأنبياء السابقين، وأحداث تاريخية لحضارات سادت ثم زالت، إضافة إلى ما حوت تلك البعثة المحمدية وما تلاها ويتلوها منذ أربعة عشر قرنا، إن جميع أحقاب الأزمنة الماضية وكذا اللاحقة، مختصرة في فترة نزول القرآن الكريم .

وإذا قلنا مثلا، بأن رأس الحيوان المنوي الذي يحمله الإنسان الذكري والذي يبلغ 3000/1 ملم فهو يحتوي على جميع خصائص صاحبه من لون بشرته وعينيه، وشعره، وجيناته الوراثية من أبيه وأمه وجده وجدته وجد جده وجدته، وهو أبعد من ذلك فيما ذهب إليه علماء الجينات والوراثة... كلها مُختصرة ومُختزلة في ذلك الجزئي المجهري؛ فإن هذا العالم بدوره مُختصر في تلك الحقبة الزّمنية القصيرة من عُمر الرسالة، وهي مُقسّمة إلى مرحلتين، مرحلة مكية وأخرى مدنية، وسيبقى جيل صحابة الرسول محمد ، والتشريع الإسلامي الأبدي المُختصر في الكتاب إضافة إلى صحيح السُّنة والسيرة النبوية، شاهدة على التاريخ، والذي بدوره يحمل بصمات أولئك الصحابة، وآثار ذلك المجتمع، بكل ما يتضمّن من إيجابيات وسلبيات، وهي حقبة مرجعية خالدة في جميع خصائصها ومميزاتها.

قال الدكتور طه جابر العلواني بما معناه: "بذلك يكون القرآن قد حفظ لنا جميع الرسالات السماوية وصحّح ما فيها، وأحبط محاولات السابقين الذين حرَّفوا التوراة والإنجيل، حيث صدّق القرآن عليها وهيمن، وأعاد كُتب وصحف الأنبياء صادقة كما أُنزلت على أولئك المرسلين من عهد نوح، مرورا برسالة إبراهيم وموسى وعيسى حتى محمد "(طه جابر العلواني، ص 18). لذلك نقول: إن القرآن هو المصدر الوحيد القادر على إثبات حقائق الوجود التاريخي للأنبياء والرسل وما يتضمن من قصص، وحقائق كونية ونظريات علمية، هذا هو الذي نقصده بعالمية القرآن وعملية اختزاله للزمان والمكان.

1-1-2)- شهادة القرآن على الناس:

لتوضيح فكرة الشهادة على الناس في القرآن الكريم، علينا أن نتصور حادثة تاريخية واحدة مثل صُلح الحديبية، والتي كان لها عظيم الأثر في التاريخ والأعراف السياسية والدبلوماسية، كيف كان الرسول يتصرف فيها على ضوء توجيه الوحى الإلهي، إن الذي أرسى ذلك الصلح بين "الملأ" أو "الأقلية النافذة" في المجتمع القريشي والمجتمع المسلم الجديد في المدينة، هو الوحي القرآني الذي جاء به النبي محمد ؛ ولا أحد يستطيع في هذا الوجود، مهما أُوتي من العبقرية والذكاء والدهاء الديبلوماسي السياسي، أن يتصرف ذلك التصرف الحكيم غير الرسول المُوجّه بالوحي الإلهي(عبد الرحمان بابكر، 2017، ص103-123) ؛ فقد ذهل عمر بن الخطاب(644-584م) أيّما ذهول لتلك البنود المُجحفة، التي كان يُمليها سُهيل بن عمرو على الرسول ، ثم يتقبّلها منه بصدر رحب ووجه طلق، وهو ما جعل عمر بن الخطاب ينتقد تلك المعاهدة المُجحفة، التي كان يرى فيها المذلة والمهانة للإسلام والمسلمين، ويرفع صوته على الرسول ويقول: "أنقبل الدّنية في ديننا يا رسول الله؟ ألسنا على حق وهم على باطل؟؟ ثم يقول الرسول بكل ثقة: بلى يا عمر، بلى يا عمر!! وكان أبو بكر مطمئنا كل الطمأنينة على جميع تصرفات الرسول ويقول لعمر ويكرر: "ويحك

يا عمر، استمسك بغرزه إنه نبي"، وهذا مشهد واحد من مئات مشاهد الاسترشاد والتوجيه الإلهي لذلك المجتمع الفريد من نوعه!!

بناء على فكرة "شهادة القرآن على الناس"، نقول: "كونه يتضمن سُننا وقوانين علمية، بل كونية، ونظريات كلية، وأحكاما تشريعية، فضلا عن حوادث تاريخية عاشها الصحابة، حيث القرآن كان ينزل عليهم والرسول بين ظهرانهم، مثل رؤيتهم لعبد الله بن أم مكتوم الذي نزلت في حقه سورة "عبس"، وعائشة زوج الرسول التي نزلت في حقها آياتٌ تبرئ ساحتها من التُّهمة والافتراء في سورة "النور"، ووقائع وأحداث تتعلق بالمنافقين واليهود...

لا شك أن نزول القرآن على ضوء تلك الآثار الواردة وفق مقتضيات تلك الأحداث، سيزيدهم إيمانا مع إيمانهم، بل وحتى بالنسبة إلى المسلمين الذين فاتتهم رؤية الرسول وشهادة نزول الوحي، وقد مرّ عليه أكثر من أربعة عشر قرنا، عليهم أن يتيقنوا بأن نفس القرآن الذي كان يعيشه الصحابة والرسول بين ظهرانهم هو نفسه نعيشه اليوم، فما على الإنسان إلّا أن يستقرئ الأحداث ويتـأمّل، ويُحلّل مضامين القرآن، ويربط بين الحوادث والوقائع التي تناولها، ثم يقوم بإسقاطها على الواقع، وفق المناهج العلمية المعروفة، التي هي كلٌّ من الملاحظة والاستقراء، والاستدلال والتفسير، ثم الوصول في نهاية المطاف إلى إثبات مسلّمة "شهادة القرآن على الناس"؛ وهو ما سنتعرض إليه بشيء من التمثيل(راجع: عبد الرحمان بابكر، 2017). أما من حيث تشريعُه، فهو يختص بأحكام تشريعية خالدة، مبنية على ثوابت أصوله ومرونة فروعه، بذلك استطاع هذا التشريع أن يتكيّف مع طبيعة الإنسان بصفة عامة، وأن يستجيب لجميع النوازع البشرية في العالم، من يوم ما نزل إلى أن تقوم الساعة، وهو معنى قول الله تعالى: (مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ) (الأنعام/39).

2-1)- "التراتيب" الزمانية والمكانية المعروضة في القرآن عرض وتحليل:

1-2-1)- "التراتيب" الزمانية والمكانية القرآنية: المفهوم والأهمية:

أ)- مفهوم "التراتيب" الزمانية والمكانية المعروضة في القرآن: نقصد بلفظة "التراتيب" الزمانية والمكانية المعروضة في القرآن الكريم، وكذا الأولويات التي جاء ذكرها فيه، أن هناك حِكما بالغة الأهمية، مُتعلقة في الترتيب بالنسبة إلى نزول الآيات، أو إلى نسق ترتيبها في المصحف الشريف، إذا أخذنا على سبيل المثال مكانة العلم في رسالة رسولنا محمد(ص)، وجدنا أن الله قد استفتح رسالة نبيه بقوله: (اقْرَأْ)، فكانت هذه اللفظة قد احتلت مركز الصدارة الزمانية في رسالة نبينا محمد، باعتبارها أول إشعاع نوراني نزل من السماء إلى الأرض، بعد طول انقطاع. ولنا بعد ذلك أن نتساءل عن أهمية ومكانة تلك الصدارة للوحي الإلهي في يوميات الأمة الإسلامية المعاصرة، وقيمة العلم وأثره في عمارة الكون بالنسبة إلى جميع الحضارات، ماضيا وحاضرا ومستقبلا، بذلك سنجد أن كلمة: (اقْرَأْ)، أخذت مفهوما عالميا وإنسانيا. (سعيد جودت، ب. ت. ن، ص29)

ورأينا بجانب ذلك مرتبة هذه الأمة، ومكانتها بين مصاف دول العالم في توظيفها لهذا الأمر الإلهي الهام، ثم رأينا مقابل ذلك أيضا كيف أن بُناة مشروع الدولة اليهودية الصهيونية "إسرائيل"، التي أضحت تُشكّل الخطر الأكبر على الأمة الإسلامية المعاصرة، كيف أولت عناية كبيرة لكسب رهان المعرفة والبحث العلمي والتقني، حيث كانت عملية إنشاء الجامعة العِبرية بالنسبة إليها من أولى الأولويات قبل نشوء الدولة، حيث أنشأت الجامعة قبل ثلاث وعشرين سنة من الاعتراف بها كدولة في المُنظمات والهيئات الدولية، وفي ذلك يقول الدكتور المؤرخ عبد الحليم عُويس بما معناه: "بعد الانتهاء من مؤتمر "بال" بسويسرا عام 1897 كان التفكير في إنشاء الجامعة قبل إنشاء الدولة. (عبد الحليم عويس، ب. ت. ن، ص204). كلّ ذلك يُظهر قيمة ومكانة: (اقْرَأْ)، في القرآن الكريم وفي هذا الوجود، ويظهر فارق المكانة الإقليمية والدولية بين من التزم بها ومن تخلف عنها ولم يستوف مُقتضياتها، سواء كان مسلما أو جاحدا لله وكافر به. ونخلص من ذلك أن الترتيب الإلهي لأي كلمة في القرآن الكريم، وتبوئها مركزَ الصدارةِ فيه، له أهميته وخطورته الكبيرتين في حالة تجاهلهما !!.

ب)- أهمية "التراتيب" الزمانية والمكانية المعروضة في القرآن: وفق قراءة استقرائية مُتأنية في كتاب الله، فتح الله عليّ عدة ملاحظات تتعلق بفكرة "التراتيب" الزمانية والمكانية، والأولويات الإنذارية المذكورة في كتاب الله المقدس، جميعها يشير إلى أهمية ومكانة "التراتيب" الزمانية والمكانية المذكورة في كتاب الله وخطورة تجاهُلها، وهي لا تقلُّ أهمية وخطورة بالنسبة إلى مكانة كلمة (اقْرَأْ)، التي أتينا على ذكرها، إضافة إلى الترتيب الزمني بالنسبة إلى عرض الأحداث التاريخية التي مرّت عليها البشرية، وأحسن مثال لذلك استفتاح نشوء هذا العالم بعرض قصة إبليس وآدم في كتاب الله. أما بالنسبة إلى ما يتعلق بالترتيب المكاني، فهو يتعلق بسُلّم الترتيب التّنازُلي أو التّصاعُدي الذي رُتّبت عليه

السُّور القرآنية في المصحف الشريف، انطلاقا من سورة الفاتحة المُتصدّرة له، والتي سُميت بأم الكتاب، ثم سورة البقرة التي تليها مباشرة، إن الإنسان يستطيع أن يستشف الكثير من الأسرار الإلهية وراء ذلك الترتيب في القرآن الكريم.

2-2-2)- علاقة "التراتيب" الزمانية والمكانية القرآنية بمشكلة الصراع العالمي:

لقد استوقفتني ملاحظة تتعلق بخطورة المشكلة التي تُعاني منها الإنسانية بشكل عام، والأمة الإسلامية بشكل خاص، وهي مشكلة الصراع وإسالة الدماء بين أبنائها. نظرا لأهمية وخطورة هذه المسألة، فقد أولاها الله عناية عظيمة بأن عرضها ضمن عدة أماكن في كتابه الكريم، ومن جملتها موضعان يتصدّران المصحف الشريف، وموضع آخر يتصدّر الوحي الذي أُنزل على الرسول ﷺ، مباشرة بعد ذِكر كلمة: (اقْرَأْ).

أ)- بالنسبة إلى الصّدارة في الترتيب التّنازُلي للمصحف الشريف، فإن القرآن الكريم يتعرض إلى الحِوار الدائر بين الله والملائكة عبر أول قصة في سورة البقرة، وقد صاغها الله ضمن طرح إشكالية تتعلق باستخلاف الإنسان على الأرض، وما توقعته الملائكة من فساد وسفك للدماء من قبل الإنسان، فجاء الحوار بين الله والملائكة كما يلي: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(30)). ثم يعرضُ الله مباشرة قصة "آدم" وصراعَه مع "إبليس" الذي يعتبره القرآن عدوا لله وللبشرية قاطبة، مع عرض تنفيذ إبليس وعدَه وقرارَه بإخراجه وزوجه من الجنة.

ب)- وإذا أخذنا بعين الاعتبار "الترتيب" الزماني لأول إنسان نزل إلى الأرض وجدنا بجانب ذلك أيضا قصة الصراع والاقتتال الذي حدث بين ابني آدم، وهو أول سفك للدماء جرى بين أبناء أول نبي بشري على هذه الأرض. جاءت قصة الاقتتال بين ابني آدم في سورة المائدة عبر قول الله تعالى: (وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيَ ـ ادَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنَ اَحَدِهِمَا وَلم يُتَقَبَّلْ مِنَ الاَخَرِ قَالَ لأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ(27) لَئِن ْ بَسَطْتَّ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَآ أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لأَقْتُلَكَ إِنِّيَ أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ(28) إِنِّيَ أُرِيدُ أَن تَبُواَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنَ اَصْحَابِ النَّارِ وَذَالِكَ جَزَآؤُاْ الظَّالِمِينَ (29) فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ(30))

ج)- وإذا تأملنا في فلسفة "التراتيب" الزمانية والمكانية المعروضة في كتاب الله والمُتعلقة بقصة بدء الخلق أيضا، وجدنا بداية سورة البقرة تتعرض إلى أصل قصة الإنسان على وجه هذه الأرض، ووجدنا بجانب ذلك بداية سورة العلق، وهي تتعرض إلى ذكر بداية أصل خلق الإنسان، كونه خُلق من عَلق، وأنه لم يكن شيئا مذكورا!!

د)- وإذا عدنا إلى "التراتيب" والأولويات الزمانية المتعلقة بقيمة (اقْرَأْ) التي أتينا على ذكرها في سورة العلق، وجدنا أن الله قد أناط عملية القراءة بالقلم، الذي هو الوسيلة المباشرة لتطوير القراءة، وكانت السورة الثانية التي أُنزلت على نبينا محمد هي سورة القلم، ومنه يستطيع الإنسان أن يستشف من هذا "الترتيب" ضرورة التلازُم بين هاتين السورتين نقطتين مهمتين:

تتمثل الأولى في القيمة التي أولاها الله بالقلم حين أقسم به، ثم أشاد مباشرة بذكر قيمة الأخلاق التي يتحلّى بها الرسول ﷺ ؛ حيث بدأت سورة القلم بقول الله تعالى: (بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ، نُ، وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ(1) مَآ أَنتَ بِنِعْمَةِ رَبِّكَ بِمَجْنُونٍ(2) وَإِنَّ لَكَ لأَجْرًا غَيْرَ مَمْنُونٍ(3) وَإِنَّكَ لَعَلىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ(4))؛ نستنتج من ذلك قيمة التلازم بين كلٍّ من القراءة والأخلاق، إنه لا معنى للقراءة وما يتفرع عنها من علم وحضارة دون أخلاق تضبط صاحبها عن الظلم والطغيان.

وتتمثل النقطة الثانية فيما جاء في سورة العلق نفسِها، فهي تتعرض إلى طبيعة الإنسان الاستبدادية وما يعتريه من كبر وطغيان حين يستغني عن غيره، فقال الله على سبيل الزجر والوعيد: (كَلاَّ إِنَّ الإِنسَانَ لَيَطْغَىٰ(6) أَن رَّءَاهُ اسْتَغْنَىٰ(7)) لذلك عقّبت الآية الكريمة بمآل الإنسان ومصيره الذي ينتظره فقال: (إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الرُّجْعَىٰ(8))، وذلك بهدف تصفية الحسابات المتعلقة بالظلم والطغيان الذي كان يمارسه الإنسان على نفسه وعلى غيره.

3-2-2)- التراتيب المتعلقة بمقصد الاستخلاف في الأرض وإشكالية الصراع العالمي:

إن مفهومي الخلافة والاستخلاف يتعلقان بمقصد من المقاصد الكبرى لخلق الكون، وهو من أبرز المقاصد وضوحا في القرآن، عبر الحوار الذي جرى بين الله الخالق والملائكة في بداية الخلق، وهو في عمقه يتعرض إلى: "السلطة السياسية والاقتصادية في القرآن"، قال تعالى في سورة البقرة: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلآئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(30)). إن افتتاح السورة بهذا العرض الإخباري، وموقعه عبر أول قصة قصّها الله في أول سورة بعد" الفاتحة"، له دلالته ومغزاه.

هناك ملحظ آخر استوقفني مبني على هذا التساؤل، لماذا أناطت الملائكة عملية الإفساد وسفك الدماء باستخلاف الإنسان على الأرض؟ (راجع: وهبة الزحيلي، ب. ت. ن، ص136) و(محمد رشيد رضا، ب. ت. ن، ص261) و(محمد الطاهر بن عاشور، ب. ت. ن، ص381-393) و(سيد قطب، 1967، ص56). فقد حاولت أن أجمع بعضا من آراء المفسرين المعاصرين، باعتبارهم أقرب إلى التوصل لتحليل الواقع الذي يعيشه العالم المعاصر، فلم أجد منهم من أناط الفساد في الأرض وسفك الدماء بالاستخلاف السياسي والاقتصادي، حيث يتفق معظمهم حول فكرة "أن الملائكة عرفت ذلك من الله أو من جهة اللوح المحفوظ، أو ثبت في علمهم أن الملائكة وحدهم المعصومون". وسنحاول الإجابة على هذا التساؤل عبر دراسة المفهوم القرآني لـ"استخلاف الإنسان على الأرض"، وإشكالية إناطته بالفساد وسفك الدماء فيها.

2-2-4)- إشكالية الاستخلاف الانسان في الأرض وعلاقته بالفساد وسفك الدماء:

أ)- تعريف مفهوم الاستخلاف الإنساني في الأرض: إن لفظة الخليفة وردت في معرض حوار الله مع الملائكة: (إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً)، وفي قوله الله تعالى لنبيه داوود: (يَادَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ)، نلاحظ أن الآية الثانية تتعلق بالمفهوم السياسي، باعتبار أن نبي الله داوود كان ملكا. إن الآيات القرآنية التي تتحدث عن الاستخلاف غالبا ما تتعرض إلى استخلاف أمة بعد هلاك أمة سابقة، وهي تتضمن مصطلحات كلٌّ من: "خلائف" و"خلفاء" و"يستخلف"، هي سنن إلهية تتعلق بالعاقبة وتحثُّ على النظر في مآلات الأقوام المنقرضة المهزومة بسبب تماديها في الظلم والفساد، وإمعانها في الإعراض عن سماع نصائح رسُلها وأنبيائها وحُكَمائها. قال الله تعالى في

سورة يونس: (وَلَقَدَ اَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَآءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُومِنُوا كَذَالِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (13) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلاَئِفَ فِي الاَرْضِ مِنْ بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ(14))، إن هذه الآية توضح معنى الاستخلاف والتمكين بعد هلاك الأمم السابقة، وكذلك لفظة "خلفاء" فهي تتضمن نفس المعنى، منها قوله تعالى: (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد قوم نوح وزادكم في الخلق بسطة) (الأعراف/69)، فهي تحمل نفس الدلالة. أما لفظة "ليستخلفنهم" فهي تشير بوضوح إلى الوعد بالتمكين السياسي لعباده الصادقين. وقال تعالى أيضا: (وَعَدَ اللَّهُ الذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الاَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا). (النور/55).

ب)- ارتباط الفساد والعدوان بالعلاقة الجدلية بين الاقتصاد والسياسة: إن العلاقة الجدلية بين الاقتصاد والسياسة، هي نفس العلاقة التي تحكم الأشخاص بالمصالح، وكذا الدول ببعضها البعض، إذا كانت دولة لا تتمتع باقتصاد قوي، فإن سياستها الخارجية ستكون عُرضة للمساومة ودولتها للإذلال، إن معظم الحروب التي دارت في العالم القديم والحديث، وستبقى دائرة إلى أن تقوم الساعة، كان المحرك الأساسي لها هو الهيمنة والدافع إليها هو الاقتصاد، قال الزعيم الشيوعي" كارل ماركس": "إن المُحرك الأساسي للإنسان هو الاقتصاد"، واليهود قد استطاعوا أن يبسطوا أيديهم على منابع القوة في العالم الحديث، وراء كل من الاقتصاد والسياسة والإعلام، إن الله ساق لنا في كتابه العزيز أسوء أنموذج سياسي فاسد، وهو" فرعون"، وذكر بجانبه أسوء أنموذج اقتصادي فاسد هو" قارون"، والعجيب في الأمر أن يتواطأ الرجلان على الظلم والفساد، وهما أعداء في القومية العِرقية، والشيء الذي جمع بينهما هو المصالح الاقتصادية والسياسية، وهو ما سنراه لاحقا بشيء من التفصيل.

ثانيا: "الأقليات" و"الأقليات النافذة": الماهية والأدوار في حركيات الصراع الإنساني:

2-1)- "الأقليات": المفهوم والنشأة والضرورة الوجودية في المجتمع الإنساني:

2-1-1)- "الأقليات" لغة واصطلاحا: التعريف وعوامل النشأة:

أ)- التعريف اللغوي لكلمة "الأقليات": جاء في معجم لسان العرب: قلّل، القِلة، والقُل خلاف الكثرة، وقد قلَّ، يقلّ، وقلَّة وقلا، فهو قليل، يقال: تقلّل الشيء واستقله، وتقالّه إذا رآه قليلا، وفي حديث أنس رضي الله عنه: "أن نفرا سألوا عن عبادة النبي محمد □، فلما أُخبروا، كأنهم تقالّوها"، أي: استقلوها، ورأوها قليلة. (ابن منظور، 1997، ص563).

ب)- التعريف الاصطلاحي لمفهوم الأقليات: التعريف الاصطلاحي للأقليات يخضع لمفاهيم سياسية تتعلق بالمنظمات الدولية، وما يتفرع عنها من حقوق الإنسان، والتعاريف الواردة فيها كثيرة ومتداخلة، لذا نحاول أن نفسر مصطلح الأقليات ضمن التفسير الاجتماعي الذي يتلاءم والموضوع المطروح. قال الدكتور سعد الدين إبراهيم: " كان مصطلح الأقلية ينصرف أساسا إلى جماعة، أو جماعات إثنية صغيرة العدد، تعيش ضمن جماعة إثنية أكبر تضم أغلبية عددية، وبتراكم الأبحاث والدراسات الميدانية عن العلاقات الإثنية، بدأت قيمة عنصر الحجم الكمِّي كمعيار لتحديد الأقلية تفقد بعضا من أهميتها السابقة. فجاء التعريف الاجتماعي للأقلية يركز على علاقات القهر والسيطرة بين الأغلبية والأقلية، فليست كل أقلية عددية بالضرورة مقهورة، وليست كل أغلبية قاهرة، فالأوروبيون في معظم أقطار العالم الثالث، كانوا يمثلون أقلية عددية، ولكنهم يسيطرون ويقهرون السكان الأصلين" (سعد الدين إبراهيم، 1994، ص24).

ج)- أنواع الأقليات: تنقسم الأقليات إلى ثلاثة أنواع من حيث التأثير، وإلى أنواع كثيرة من حيث الخِلقة الإلهية، أما من حيث التأثير فتسمى بـ"الأقليات النافذة أو الاستراتيجية"، وهي بدورها تنقسم إلى قسمين، أقلية إصلاحية عادلة و أقلية إفسادية ظالمة، وهناك نوع ثالث نسميه بـ"الأقلية المُتذبذِبة". أما أنواعها من حيث الخِلقة الإلهية فهي كثيرة، منها العرقية، والفكرية والمذهبية، والإثنية، واللغوية، وتختلف تعاريفها من جهة النظر إليها من خلال المنظمات الدولية وحقوق الإنسان كما رأينا، وهو مجال واسع للدراسات الأنثروبولوجية والاجتماعية والسياسية.

يركز هذا المقال على نوعين من الأقليات مع الإشارة إلى نوع ثالث، وكل نوع يختلف عن غيره من حيث الدور الذي يؤديه: يتمثل النوع الأول في "الأقلية المُستضعفة" المغلوب على أمرها، التي لا تملك من أمرها شيئا، وهذا النوع مما تصدّى له القانون الدولي بالمعالجة باسم الأقليات وحقوق الإنسان، والنوع الثاني هو الأقلية النموذجية النافذة التي بيدها مقاليد الحكم واتخاذ القرار، ويُصطلح عليها بـ"الدولة العميقة"، والنوع الثالث من الأقليات يُعرّف بالوظيفة التي تؤديها، علما بأن جميع هذه الأنواع من الأقليات قد جاء ذكرها في كتاب القرآن الكريم ؛ وهي وظيفة الجوسسة والاختراق، بهدف زعزعة الاستقرار. وسنحاول في هذه الدراسة تسليط الضوء على النوعين الأولين فقط، الأقلية المُستضعفة والمُسيطرة، مع إشارة طفيفة إلى "القطيع المجتمعي" الذي ينساق وراء هذه الأخيرة.

2-1-2)- التكتلات الاجتماعية وعوامل نشوء الأقليات:

هناك عوامل نفسية واجتماعية وسياسية واقتصادية وغيرها... منشئة للأقليات، سواء في التاريخ القديم، أو الوسيط، أو الحديث، وسنحاول التعرض إلى تلك العوامل بما يتناسب والبحث المطروح:

أ)- فكرة التّحيز والتأثير والتّأثر وعلاقاتها بنشوء الأقليات: إن عملية التّحيز مع أو ضد شيء، أو فكرة أو جماعة، أو عصر أو منطقة أو اتجاه أو دولة، أو منتوج... جميع هذه المشاعر هي مرافقة للسلوك الإنساني في جميع مستويات التراتبية الاجتماعية، وفي جميع العصور. إلّا أن المشكلة ليست في ذات التحيز، ولكن في معقوليته وعدم معقوليته، وفي أخلاقيته وعدمها، وفي عُنفيته أو سِلميته... بمجرد أن يكون هناك أيّ تجمع طلابي في مؤسسة تربوية، أو جامعية، أو تجمُّع جنود في ثكنة عسكرية، أو عمال في مصنع ضمن مجموعة نقابية، أو انتخابات في بلدة أو قرية، فإن ذلك التجمع قابل أن يفرز مجموعة مُغايرة في تفكيرها وأهدافها للمجموعة الكبرى، يمكن أن نسميها بـ "بذرة نشوء الأقليات"، إن الإنسان يميل قلبه وهواه إلى من يرتاح إليه نفسيا، وفق مشاعر متنوعة لا حصر لها، فإن الغرباء بجميع أنواعهم في بلد معين غالبا ما يؤازرون بعضهم بعضا، وفي العائلة والأسرة الواحدة غالبا ما ينحاز الإخوة والأخوات المُنحدرون من أب واحد إلى بعضهم، والمُنتمون إلى أم مختلفة يشكلون بدورهم هذا الدور، وإن كانت هناك هِنات ومشكلات بسيطة بين الإخوة الأشقاء والإخوة لأم، سرعان ما تتحول تلك الهفوات البسيطة إلى أحقاد وضغائن. ومن أمثلة ذلك، الصراع المُحتدم في بيت نبي الله يعقوب، بين يوسف وإخوته، وهو صراع ضمن الأسرة، وهو نفسه على مستوى القرية أو البلدة أو الدولة، والذي نجده في التاريخ متداعيا عبر الأساطير والنصوص الدينية، والكواليس السياسية الدولية، والإمبراطوريات على مستوى العالم.

ب)- علاقة العامل النفسي بظاهرة الأقليات: إن الإنسان بطبيعته الاجتماعية وشخصيته السيكولوجية، وغرائزه الإنسانية مشدود بعوامل كثيرة تربطه بغيره، سواء تعلق ذلك بالعامل الجنسي أو العرقي أو الفكري أو المذهبي أو المادي المنفعي المصلحي، ويبقى العامل الأخير "المصلحي"، غالبا ما يكون هو العامل المحرك والكامن وراء تلك العوامل، سواء كانت تلك المصلحة مظنونة أو مُؤكدة، مشروعة أو غير مشروعة، مُتّهمَة أو بريئة!!.

يرى الدكتور سعد الدين إبراهيم، أن الجماعات الإثنية تُصبح ذات مغزى للدراسة السوسيولوجية ليس بذاتها، ولكن لاستكشاف نمط علاقاتها ببعضها البعض في نفس المجتمع، أوفي إطار نفس الوحدة السياسية القانونية، سواء في إطار الدولة أو أي اجتماع إنساني آخر، فالوعي الإثني بالذات، لا يتولد ولا ينمو لدى جماعة معينة، إلا بسبب علاقات الجوار والتفاعل مع جماعات إثنية أخرى، إن الإدراك الذاتي للتفرد، أو الاختلاف عن الآخرين، هو بدوره نتائج لرؤية وإدراك هؤلاء الآخرين!! ذلك أن معنى الـ "نحن" و الـ"هم" أو الغيرية أو الآخرية والتباين بين "النَّحنُ الجماعية" و"الهُم الجماعية"، كلٌّ منهما يُكمِّل الآخر على مستوى الإدراكي السيكولوجي، فإدراك فرد كونه أبيض البشرة، لا يتم إلّا من خلال إدراكه لفرد آخر أسود البشرة، وإدراك فرد لذاته "الإسلامية" لا يتم إلّا من خلال إدراك الآخر لذاته "المسيحية" أو "اليهودية"، وإدراك فرد "عربي"، لا يتأتى إلا من خلال إدراكه للآخر "الأمازيغي" أو "الكردي" أو "التركي"... وهكذا. (سعد الدين إبراهيم، 1994، ص25).

2-2)- عامل التنافس والاستقطاب الأيديولوجي والسياسي و"ثقافة الغار":

إن أي جماعة تتبنى موقفا عقائديا أو أيديولوجيا، يختلف عن الجماعة الأساسية التي ينتمي إليها المجتمع، عبارة عن بذرة نشوء الأقليات الأيديولوجية أو العقائدية أو المذهبية أو السياسية. إن معظم ــ إن لم نقل ــ جميع المذاهب الإسلامية السياسية المعارضة، بالنسبة إلى الماضي كانت تحتمي بالعمل السري، بعيدا عن الأضواء خوفا من أن تمتد إليها يد القمع السياسي، على يد الفئة الأقلية المتغلبة. وغالبا ما يكون الغار أو الكهف منطلقا لدعوتها، حيث تنظم قواعدها لتنطلق لنشر دعوتها العامة من جديد، لتتحول فيما بعد إلى مذاهب تتبناها دول، وفتية أصحاب الكهف التي أنزل الله سورة كاملة بعنوانها ومضمونها توضح جانبا من الموضوع، والسبب في اللجوء إلى الكهف كان بهدف الهروب من المجتمع أو بالأحرى من الأقلية المهيمنة على المجتمع، الذي يستعصي البقاء فيه ؛ بدليل قول الله على لسانهم: (إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوا إِذًا اَبَدًا(20)). ويقترب من موقف أصحاب الكهف موقفه غداة الهجرة ولجوئه إلى غار ثور مع أبي بكر، إلا أن سبب احتمائه بـ"غار حراء" أول الأمر لم يكن ناشئا عن اضطهاد، بل عن حبّ عُزلة وتفكّر في ملكوت الله، وهو في مضمونه هروبٌ من المجتمع الذي ضاق به ذرعا.

إن المذهب الإباضي مثلا، كأول مذهب سياسي وعقدي انطلق في نشاطه السّري المعارض للحكم الأموي والعباسي من الغار، لقد كان الإمام القيادي أبو عبيدة مسلم بن أبي كريمة في البصرة، يخطط لمواجهة بطش حكّام بني أمية وبني العباس، وكوّن حينها ثلة من القيادات العلمية والسياسية، تسمّى في الأدبيات الإباضية بـ "حملة العلم" وقد استطاعت فيما بعد تأسيس دول أو إمامات في المشرق والمغرب الإسلاميين، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المذهب الإسماعيلي الشيعي.

بالنسبة إلى عامل التنافس والاستقطاب الأيديولوجي، نجد في التاريخ الإسلامي السياسي مثالا يتعلق بالصحابي علي بن أبي طالب رضي الله عنه، كان يرى أحقية خلافة الرسول ، لذلك رفض مبايعة أبي بكر أول أمره، فنشأ فيما بعد عن هذه المعارضة مذهب سياسي عقائدي، هو المذهب الشيعي الذي ينتمي وينتصر له الملايين من الناس. وهو ما

وقع أيضا بالنسبة إلى مذهب الاعتزال وعلاقته بواصل بن عطاء وشيخه "الحسن البصري" ؛ حيث إن التابعي "الحسن البصري" كانت لديه حلقة علم، ومن جملة طلابه طالب كثيرا ما كان يثير تساؤلات، حيث كان فضوله يُملي عليه شيئا من الخروج عن المألوف، وفي يوم من الأيام استقل هذا الطالب بسارية من سواري المسجد، هو ومن كان يرى رأيه من الطلاب، فقال عنه الإمام حسن البصري: "اعتزلنا واصل"، بذلك شكّل "واصل بن عطاء" بذرة مذهب الاعتزال. (محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، 2008، ج4، ص611).

ومنه، فإنه عندما يتخذ إنسانٌ موقفا سياسيا مُعارضا للموقف السائد المهيمن الذي وضعته أقلية أو أغلبية مهيمنة في عصر ما أو مجتمع ما، وبعد مدة ينتصر لمواقف وأفكار هذا المعارض أتباع، في ظل الاستبداد السياسي وغياب العدالة، ممّا يزيد الأتباع تمسُّكا بفكرة المعارضة، فيشكلون اتجاها صاعدا مؤثرا إيجابا أو سلبا في الحياة العامة، والتاريخ الاجتماعي والسياسي مليء بالأمثلة...

2-3)- دور الأقليات في تحريك ديناميكية الوجود الإنساني: إن الأقليات تشكِّل مبدأ من مبادئ التوازن الكوني في الطبيعة، والذي بدوره يشكل سنة من السنن الإلهية في الكون.

أ)- الأقليات ومبدأ التوازن في الطبيعة: إن الحياة الطبيعية جُبلت على الثنائية الجدلية لظاهرة القلة والكثرة، سواء بالنسبة إلى الأمم الحية، أو ما يتعلق بالطبيعة المادية، إن عالم الحيوانات أو الطيور أو الأسماك النادرة، أو الغازات أو المعادن أو السوائل، جميعها يمثل "مبدأ" أو "قانونا كونيا"، وفي الوقت نفسه يشكل توازنا إيكولوجيا طبيعيا، بالنسبة إلى الكائنات غير البشرية، أو توازنا اجتماعيا وحضاريا بالنسبة إلى الكائنات البشرية، وذلك ضمن ديناميكيات وتفاعلات قانون التدافع والتنافس الكوني المُطّرد؛ وانعدامها يشكل خرقا لقانون التوازن الحيوي، فلو رجعنا إلى طعامنا الغذائي كأبسط مثال، حيث نعتمد على الكثير من الخضروات في تحضيره، ثم نكتفي بقليل من التوابل في تجهيزه وطهيه، لولا ذلك القليل من الملح مع تلك التوابل ما استسغنا طعامنا اليومي. معنى ذلك أن الله خلق قانون التأثير والتأثر المتكافئ حينا وغير المتكافئ حينا آخر، بما يجعل قانون التفاعل بين الأقلية مع الأكثرية، قانونا كونيا منذ خلق الله هذا الكوكب الذي نعيشه**!!**.

ب)- الأقليات كظاهرة اختلاف وسنة إلهية كونية: إنّ موضوع الأقلية والأكثرية، بين الشعوب والأجناس، موضوع فطري يعود منشؤه إلى سنة الاختلاف القائم على سنة التدافع وغيره من السنن الكونية. أما عوامل الاختلاف بين البشر، فهي كثيرة ومتنوعة، إلى درجة أنها لا يمكن حصرها، وهي تشكل البراعم الأولى لنشوء التّحزُّبات والتكتلات والتفرعات والانقسامات والتراتبيات والطبقات الاجتماعية. هنا تبرز أهمية الصور النمطية كموضوع ينير طريق فهم الظاهرة الأقلياتية، وتلقى الضوء على التكتلات الاجتماعية والعِرقية والسياسية والدينية، وهي من السنن الكونية التي تصبُّ بمجموعها، في مفهوم "مقاصد" خلق هذا الكون العظيم.

ثالثا: "الأقليّة النموذجية، والأقلية النافذة" أو "الدولة العميقة" بين المنظورين القرآني والسوسيولوجي:

بعد تعرضنا إلى ماهية الأقليات والعوامل المفسرة لصعودها على مسرح الأحداث الاجتماعية والسياسية، سنتعرض حاليا إلى تعريف الأقلية النموذجية، مع التفريق بينها وبين الأقلية النموذجية النافذة" أو "الملأ" من منظور قرآني، وإلى علاقة التأثير والتأثُّر بين الأقليات النافذة المتصارعة، التي يوجد بينها نوع نسميه بـ "الأقلية المُتذبذِبة؛ ثم نقدم نموذجا قرآنيا تحليليا لظاهرة التعصب العرقي ضد الأقلية المستضعفة في الدولة الفرعونية العميقة، وأثرها على البُنى الاجتماعية المكونة للمجتمع المصري القديم، ونتعرض في الأخير إلى تعريف "الأقليّة النموذجية النافذة" المرادفة للدولة العميقة وإلى مكوناتها، والآليات التي تستخدمها، وإجراءات الحفاظ على مصالحها وطنيا ودوليا، من جملتها استخدامها لقانون حالة الطوارئ وتحويل الأقلية المستضعفة إلى كبش فداء من منظور علم الاجتماع السياسي المعاصر.

1-3)- "الأقليّة النموذجية عرض وتحليل:

جاء في موسوعة الحرة "ويكيبيديا" بأن الأقليّة النموذجيّة هي مجموعة من الأقليات (سواء على أساس العرق أو الجنس أو الدين) التي غالبًا ما يُنظر إليها على أنها تحقق درجة أعلى من النجاح الاجتماعي والاقتصادي بالمقارنة مع متوسط السُّكاني". (أقلية نموذجية https://ar.wikipedia.org/wiki).

تقوم فلسفة الأقليات النموذجية على دراسةٍ نفسية، مُنطلقُها يعود إلى إثبات الذات أمام الأغلبية، وأوضحُ مثالٍ لذلك تميُّز الأفارقة في المجتمعات الغربية في كثير من الميادين، من جملتها ميدان كرة القدم، تقول موسوعة "ويكيبيديا": إنه تمّ استخدام مصطلح "الأقليّة النموذجيّة" لأول مرة لوصف الأمريكيين اليابانيين، ليتطوّر ليشمل أيضًا اليهود الأمريكيين، والأمريكيين الآسيويين، ولكن بشكل أكثر تحديدًا الآسيويين الشرقيين (الصينيين واليابانيين والكوريين). أثبتت دراساتٌ في "إسرائيل" أن المسيحيين العرب المجموعة الأكثر تعليمًا، حيث يُطلق عليهم "أقلية نموذجية". وقد وصفت صحيفة معاريف المسيحيين العرب بأنهم "الأنجح في نظام التعليم"، بالمقارنة مع أي مجموعة دينية أخرى من المسلمين والدروز وجميع الطلاب في نظام التعليم اليهودي (أقلية نموذجية

https://ar.wikipedia.org/wiki)، بذلك نلاحظ أنه ليس بالضرورة أن تكون الأقليّة النموذجيّة مُسيطرة، وحديثنا ينصبُّ على الأقلية التي لها الأثر في اتخاذ القرار، المُسمّاة بـ "الأقليّة النموذجية النافذة"، أو "الدولة العميقة" أو "الطبقة الأوليغارشية" بالتعابير السوسيولوجية المعاصرة (https://www.mosoah.com/references/dictionaries-and-encyclopedias)، أو "الملأ" بالتعبير القرآني، كما تناولنا أعلاه.

3 - 2)"الأقليّة النموذجية النافذة" المرادفة لمفهوم "الملأ " القرآني:

بعد استقرائنا للآيات القرآنية، وجدنا أن مفهوم "الملأ" مفهوم بريء، لا يحمل بالضرورة اللون العدائي للفئة الأقلية المؤمنة لرسالة التوحيد، من الأنبياء والمرسلين كما هو مُتبادر إلى الذهن، من بين المفردات لكلمة "الملأ" في المعاجم: تأتي كمصطلح بمعنى "الملأ الأعلى"، أي عالم الأرواح والملائكة، منها قوله تعالى في سورة الصافات: (لاَّ يَسْمَعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ(8)) أما كلمة "ملأ" كـ "اسم"، فتأتي بمعنى "الجماعة المُقرَّبة للسلطة الحاكمة"، منها قوله تعالى في سورة النمل على لسان بلقيس ملكة سبأ: (قَالَتْ يَآ أَيُّهَا الْمَلأُ اِنِّيَ أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ(29)) ثم قال نبي الله سليمان أيضا في نفس السورة: (قَالَ يَآ أَيُّهَا الْمَلأُ اَيُّكُمْ يَاتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَّأْتُونِي مُسْلِمِينَ(38)) ومنها أيضا قوله تعالى في سورة القصص: (وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَى الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ (20))وغالبا ما يُقصد بالملأ في معظم آيات كتاب الله بـ"الجماعة المستكبرة" أو الكافرة، وهو ما يُصطلح عليه في المفهوم المعاصر بـ"الدولة العميقة".

يتفق علماء علم الاجتماع، والاجتماع السياسي أن أهم وأخطر أنواع الأقليات، هي "الأقليات النموذجية النافذة" أو "المؤثرة"، وتُسمى أيضا بـ"الأقليات الاستراتيجية". حيث نرى أيَّ مجتمع من المجتمعات أو دولة من الدول، تتحكم فيها "الأقليات الاستراتيجية النافذة" عبر هرمية السلطة الحاكمة، فإننا نلاحظ مثلا أن البيت الأبيض في الولايات المتحدة، من حقبة إلى أخرى تتحكم فيه ما يسمى إعلاميا بـ"الصقور"، وتبقى "الحمائم" تبعا لها. وينعكس ذلك التّحكُّم ليس على نفس الدولة، بل على سياساتها الخارجية ومنه على اتجاهات أداء مجلس الأمن الدولي، وما يترتب عنه من انعكاس مباشر على اتجاهات وأولويات السياسات العالمية، باعتبار أمريكا قوة عظمى.

يقول الدكتور "طارق سويدان" ضمن موضوع "التغيير الحضاري بين الشعوب والأمم"، قال فيما معناه: "إن الداعي إلى الله لا ينبغي أن يتأثر بالجماهير والحشود التي تملأ المُنتديات والمراقص وأماكن اللهو والفساد، إن عملية التغيير ترتبط بالنوعية والأقلية التي يُعوَّل عليها في عملية التغيير، ثم قال: إن المؤثرين في الأغلبية هم قلة، يتراوح عددهم ما بين 03 إلى 05 % فقط (طارق سويدان، 1997). أرى صواب فكرة الدكتور "طارق" من زاوية ما يلاحظه الإنسان، بأن جميع الثورات، والاحتجاجات في أي مجتمع، وكذا الاعتصامات الطلابية والإضرابات، يُفكّر ويقوم بها طالب أو اثنين فيلتحق به الآخرون، سواء كان ذلك بالنسبة إلى الحركات الإصلاحية أو الإفسادية، وهو ما يمكن طرحه على المستوى الكلي والجزئي، على المستوى الدولي العام، أو الدولة الواحدة، أو القرية أو الطائفة وحتى على مستوى البيت الواحد بين الإخوة والأخوات. وهذا ما وقع في بيت نبي الله يعقوب بين الإخوة لأب والإخوة لأم ؛ من خلال دراستي لموضوع الأقليات وإشكالية الصراع في العالم، وتعرُّضي لتاريخ اليهود في مرحلة وجودهم في بيت جدهم "إسرائيل"، أي "يعقوب" في أرض الكنعانيين ـ فلسطين ـ منَّ الله عليَّ بملاحظة تكشف جانبا من مصدر الصراع المُحتدم في بيت نبي الله "يعقوب" عليه السلام بين أبنائه العشرة من جهة، ويوسف وأخيه بنيامين من جهة ثانية، كونه صراعٌ يعود إلى قانون القلة والكثرة الذي يحكم فلسفة الصراع في العالم، وسببه يعود إلى يعقوب الذي جمع في عصمته أربع نسوة، ونرى أيضا أن أصل الصراع يعود إلى غيرة النساء الضرائر، ثم ينعكس بين الإخوة لأب والإخوة لأم، وهو بعمومه نوع من الصراع الذي يحكم هذا العالم!!.

لقد وقع أيضا شيءٌ من الاضطراب في بيت الرسول حتى اضطر إلى هجر نسائه شهرا كاملا، والعامل المُحرِّك لذلك الاضطراب هو كلٌّ من زوجتيه عائشة وحفصة، وتلعب المكانةُ المعنوية عظيمَ الأثر في ذلك الاضطراب، لأن لكلٍّ من أبي بكر وعمر بن الخطاب مكانتهما الخاصة في شخص الرسول وكذا بقية الصحابة في المجتمع الجديد "المدينة المنورة"، إن الشيء الذي ينبغي ألّا يغيب عن الأذهان أن المجتمع البشري له خصائصه ومميزاته التي لا يمكن أن تفارقه، سواء تمثّل ذلك في مجتمع الصحابة أو زوجات الرُّسل والأنبياء، أو أي جنس آخر، وتلك الخصائص تشكل ضرورة وجودها في العالم، لتحقيق مقصد العمارة في الأرض والاستخلاف السياسي والاقتصادي، التي هما من جملة المقاصد الكبرى لخلق هذا الوجود كما رأينا.

3-3)- أقسام الطبقات الاجتماعية في نموذج الدولة المصرية الفرعونية:

لقد قسّم الباحث الدكتور عبد العزيز خواجة المجتمع الفرعوني إلى خمس طبقات رئيسة:

أ)- الطبقة الأولى: هي الطبقة الحاكمة: وتتمثل هذه الطبقة في شخص فرعون، الذي يمثل السلطة المطلقة في الدولة، وقد احتكر جميع السلطات في يده، وراء ادعائه الألوهية، قال الله عنه في سورة النازعات : (فَحَشَرَ فَنَادَى(23) فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى(24)) قال الدكتور عبد العزيز خواجة بما معناه: "تُعدُّ السلطة السياسية الفرعونية عبارة عن جهاز اتصالي ضخم مُكوَّن من مجموعة عناصر اتصالية تعمل على ضمان استمراريتها وصيرورتها العادية، وقد كانت السلطة الفرعونية المالكة في مصر تتشكل من عنصرين أساسيين: عنصر الحاشية، (أي الدولة العميقة)، التي عبّر الله عنها بمصطلح "الملأ"، والعنصر الثاني يتمثل في الجيش وقد عبر الله عنه بـ"الجنود"، ويتمثّلان هذان العنصران في الطبقتين الثانية والثالثة، كما هو مُوضَّح أدناه".

ب)- الطبقة الثانية ممثلة في "الحاشية: وهي ما يُصطلح عليه بـ"الدولة العميقة" بالمفهوم الحديث، وأهم شخصياتها "هامان"(عبد العزيز خواجة، 2007، ص211). إضافة إلى "قارون" الإسرائيلي، وقد عبّر عنهما القرآن بمصطلح "الملأ"، وهي الجماعة المؤثرة والمحيطة بفرعون وحاشيته، والمستفيدة من السلطة بفعل المُسايرة والتحريض على الظلم والفساد السياسي في الدولة. إن جماعة الملأ: وهي تمثل "الدولة العميقة"، وقد ذكرها الله في القرآن 08 مرات، وتمثل النواة الداخلية في الدائرة السوسيومترية لأنها تشكل الفئة المُقربة لفرعون، وهي الحاشية الأولى، وصاحبة الاستشارة التي تصدر منها القرارات المهمة، وإليها يعود فرعون أثناء الأزمات" (وَقَالَ الْمَلأُ مِن قَوْمِ فِرْعَوْنَ أَتَذَرُ مُوسَى وَقَوْمَهُ لِيُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ وَيَذَرَكَ وَءَالِهَتَكَ قَالَ سَنُقَتِّلُ أَبْنَآءَهُمْ وَنَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ وَإِنَّا فَوْقَهُمْ قَاهِرُونَ(127)) (الأعراف) إن دور الملأ هنا دور تحريضي، وتعتبر هذه الفئة متميزة ومستحوذة على الثروات داخل الدولة، (وَقَالَ مُوسَى رَبَّنَآ إِنَّكَ ءَاتَيْتَ فِرْعَوْنَ وَمَلأَهُ زِينَةً وَأَمْوَالاً فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا) (يونس/88).

ج)- الطبقة الثالثة: وهي الأجهزة القمعية للسلطة: وهي الطبقة الثالثة في هيكل النظام الفرعوني، وهي طبقة مُسخَّرة لخدمة النظام الفاسد، ويمكن أن نضيف إليها، طبقة سحرة فرعون، لأن دورهما واحد، طبقة الجنود تتمثل في تنفيذ الأوامر في الظلم واضطهاد بني إسرائيل، في حين تتمثل طبقة السحرة في تغليط وتضليل القوم ـ المجتمع القبطي ـ عن طريق السحر، والقرآن العظيم صرح بأن هذه الطبقة كانت مُكرهة على إتيان تلك الأعمال المساهِمة في التضليل، ومؤسسة السحرة تمثل الجهاز التنفيذي لمخرجات النسق السياسي، كما يقول الدكتور "عبد العزيز خواجة".

د)- الطبقة الرابعة وهي الطبقة الشعبية التابعة: هي الطبقة العريضة من المجتمع الفرعوني ؛ وهي الطبقة المُتّسمة بـ"ثقافة القطيع"، وهي طبقة مطيعة وخاضعة ومُستخفٌّ بها لأنها مُنساقة وراء آراء السلطة الفرعونية المهيمنة. دليل الاستخفاف بالمجتمع يتمثل في الخطاب السخيف الذي أذاعه فرعون في قومه ونقله إلينا كتاب الله في سورة الزخرف: (وَنَادَى فِرْعَوْنُ فِي قَوْمِهِ قَالَ يَاقَوْمِ أَلَيْسَ لِي مُلْكُ مِصْرَ وَهَذِهِ الأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِيَ أَفَلاَ تُبْصِرُونَ(51) أَمَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الذِي هُوَ مَهِينٌ وَلاَ يَكَادُ يُبِينُ(52) فَلَوْلاَ أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسَاوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَآءَ مَعَهُ الْمَلاَئِكَةُ مُقْتَرِنِينَ(53) فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ(54)).

و)- الطبقة الخامسة، وهي الجماعة المُستضعفة: متمثلة في الطبقة الدنيا من المجتمع الفرعوني، وهي الأقلية المنتمية إلى قوم موسى جنس بني إسرائيل، سلالة نبي الله إبراهيم ويعقوب ويوسف عليهم السلام. وقد ذاقت هذه الطائفة المُستضعفة كلّ ألوان التنكيل والتعذيب من السلطة الفرعونية، وكانت مقابل ذلك صابرة ومُحتسبة، وقد مدحها الله في كثير من آياته القرآنية.

3-4)- آليات وديناميكيات الصراع بين الأقليتين في الدولة الفرعونية:

لقد صوّر الوحْيُ الإلهي في مطلع سورة القصص، مقابلة فريدة من نوعها بين أقليتين متقابلتين، أقلية فرعونية نافذة ومُسيطرة، بلغت من الظلم والطغيان ما جعلها الله في كتابه الكريم نموذجا للفساد في الأرض، أمام أقلية مُستضعفة مؤمنة وصادقة، وهي أقلية بني إسرائيل. إن الذي ميّز جماعة بني إسرائيل عن غيرها في تلك المرحلة التاريخية، هو الصدق مع الله والصبر على الإيذاء الممارس عليها من قبل الأقلية الفرعونية، قال الحق جلاله عنها في سورة السجدة: (وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَيِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِئَايَاتِنَا يُوقِنُونَ(24)) وهو الاصطفاء الذي خصّه الله عليهم في تلك الظروف، وكان سببَ زعمهم فيما بعد انهم "شعبُ الله المختار"!!! وهذان النموذجان من الأقليتين "الأقلية الفرعونية، والأقلية المُضطهدة، يُجسِّدان عُمق الصراع في العالم، وهو نفس النموذج المُتجسَّد في المجتمع القرشي عهد الرسالة المحمدية، ويستطيع الإنسان وراء التحليل العلمي، أن يستشف الكثير من الأسرار حول عالمنا المعاصر، سواء كان ذلك على المستوى الجزئي أو الكلي. نقصد بالمستوى الكلي أي الدولي والعالمي، وهو ما يقع حاليا من استغلال الدول الكبرى للدول المُستضعفة، من احتلال للعراق وإذكاء الفتن بين أبنائه، ونشر الفتن في كل من سوريا واليمن والبحرين وجارتنا ليبيا، وفلسطين ومصر ولبنان وغير ذلك مما هو ظاهر للعيان، ونقصد بالمستوى الجزئي ما يقع على مستوى الدولة الواحدة، كمصر أو المغرب أو لبنان أو الجزائر أو غيرها.

لقد افتُتح الله سورة القصص بعرض خمس صفات تمارسها الأقلية الفرعونية الفاسدة. وهي قوله تعالى: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ

الْمُفْسِدِينَ(4)). وأخطر تلك الصفات صفة العُلو والاستكبار، فقال: (إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلاَ فِي الأَرْضِ) وتجسيد العلو في شخص فرعون يكمُن في "ادعائه الألوهية"، والصفة الخطيرة الثانية هي بث التفرقة بين الناس بهدف السيطرة، قال تعالى: (وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا) إن عملية بث التفرقة بين الناس، هي دأب جميع الأنظمة الديكتاتورية في العالم، وهي على مستويين، مستوى السيطرة الخارجية من قبل الأعداء عن طريق الاختراق، إن جميع الدول المستعمِرة للشعوب، تلجأ إلى اختلاق التفرقة في حالة انعدامها، وتوظيفها بجميع أنواعها في حالة وجودها، مذهبية، أم عرقية، أم لغوية، أم إثنية، أيّا كان نوعها، ومهما كانت وسيلة الاختلاق، أو زاوية الاختراق، ضيقة أم واسعة، فإن العدو يستغلها ويستثمرها ويتخذها مدخلا للولوج بها المجتمع، أما المستوى الثاني فيكون على المستوى الداخلي والمحلي، وهي الخاصة الثانية التي وظّفها فرعون بعد ادعاء الألوهية، ولقد أتى الله على ذكر الأعمال المُسلطة على الأقلية المُستضعفة من بني إسرائيل وقال: (يَسْتَضْعِفُ طَآئِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَآءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَآءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ(4)). إن قوله تعالى في وصف فرعون: (إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ). يُلخّص استفسار ملائكة الله حين سألته في بداية الخلق وقالت: (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ)، وهذه الآية جامعة للأعمال العدوانية التي جاء ذكرها في الآية السابقة، المُتمثلة في استضعاف الطائفة، وذبح أبنائها، واستحياء نسائها.

تعرَّض الله مباشرة في نفس السورة "القصص" إلى جملة من سننه وقوانينه في الأرض، منها قانون المنِّ على الأقلية المستضعفة من بني إسرائيل، وفق سنة التوريث والإستبدال والتمكين، ولخّصها الله في خمس امتيازات مقابل الصفات الفرعونية الخمسة السابقة، وقال تعالى: (وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَيِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ(5) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ(6)).

لقد لخّص الدكتور عبد العزيز خواجة آليات وديناميكيات الصراع الأقلياتي في المجتمع الفرعوني، وقال: "نستطيع القول بأن المجتمع الإسرائيلي مجتمع نموذجي للخضوع لكل التجارب الاجتماعية التاريخية تقريبا، فمن أجل معرفة حركية التاريخ وصيرورته والقوانين الاجتماعية العامة يكفي العودة إلى هذا النموذج التاريخي وتطوره." (عبد العزيز خواجة، 2007، ص160).

إن الدولة العميقة في المجتمع الفرعوني - كما بيناه أعلاه - يُلاحظ أنه يتكون من "أقلية ثلاثية فاسدة"، التي تهيمن على كلّ مفاصل الدولة، يتكون هذا القطب الثلاثي من فرعون ووزيره هامان، الذي يأتمر بأوامره، ويساهم معه في مغالطة القوم والاستخفاف به. إن من جملة مساهمة هامان في عملية الاستخفاف بالشعب المصري ما جاء في سورة القصص على لسان فرعون: (وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَآ أَيُّهَا الْمَلأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ(38)). وما يُعمق فكرة التفرقة الفرعونية في المجتمع القبطي وجود قارون - الإسرائيلي - في قصره، بموجب المكانة الاجتماعية والمصالح السياسية والاقتصادية، التي تربط بينهما جميعا، وقارون كان ممن باع ضميره، ومشى في صف فرعون، يأتمر بأوامره وينتهي بنواهيه، في عملية اضطهاد ذويه من بني إسرائيل، والعجيب في أمر اليهود أنهم تحالفوا مع أعدائهم في كثير من مراحل التاريخ. وفي هذا الاتجاه، يرى الدكتور عبد الوهاب المسيري أن المصالح هي التي تحرك الإنسان في هذه الحياة، ويقول: إن الإمبراطورية الرومانية، حين صبّت جام غضبها على العناصر المتمردة في فلسطين، لقد تحالفت في الوقت نفسه مع أثرياء اليهود، الذين كانت مصالحهم مرتبطة بمصلحة الإمبراطورية، ومما يجدر ذكره أنه كان يوجد جيش يهودي بقيادة أجريبا الثاني يعمل تحت قيادة تيتوس قائد القوات الرومانية، التي حطمت الهيكل، فالمسألة لم تكن عداءً لليهود أو حبا لهم، بقدر ماهي مصالح إمبراطورية." (عبد الوهاب المسيري، ج1، 1999، ص139).

إن وجود قارون في قصر فرعون هو توضيح إلهي في بث التفرقة التي جسّدها فرعون في دولته كما رأينا، إن مَثَلَ قارون في دولة فرعون كمثل أبي لهب عم الرسول ، في البيت القرشي. ومن عجائب الحِكم الإلهية والسنن الكونية، أن يقابل ذلك الثلاثي المُهيمن على قصر فرعون، ثلاثيٌّ إصلاحي آخر أراده الله، كان أوَّلهم موسى الذي كان له عظيمُ الأثر في زوجة فرعون، "آسية" التي أرضعته، إضافة إلى أحد رجال البلاط، وقد أشار إليه القرآن في أكثر من موقف ووصفه بالرجل الذي "يكتُم إيمانه". وقد قد جاء ذكر الرجل الذي يكتم إيمانه في سورة غافر باستفاضة، من الآية 28 حتى 45، وكان يدافع عن موسى في قصر فرعون، وحماه الله بقوله: (فَوَقَاهُ اللَّهُ سَيِّئَاتِ مَا مَكَرُوا وَحَاقَ بِئَالِ فِرْعَوْنَ سُوءُ الْعَذَابِ(45)) مصداقا لقوله تعالى: (أَنجَيْنَا الذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ(165)) (سورة الأعراف). بذلك نلاحظ أن الأقلية الثلاثية الفاسدة في قصر فرعون، قد هيأ لها الله أقلية إصلاحية في نفس القصر، وهو ما يؤكد تشبث الإنسان بالعمل الإصلاحي والدعوي إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، ولا يهمُّه الظرف الزماني والمكاني، ولا المحيط الفاسد الذي يحيط به، ولا قانون القلة والكثرة، ولا أي شيء من تلك المُعوِّقات!!.

وتُمثل شخصية فرعون النموذج المثالي في اضطهاد الأقليات الإسرائيلية كما وصفها القرآن الكريم، وفي ذلك يقول الباحث عبد العزيز خواجة: "تُجمِعُ الكتب التراثية على الوضعية المُزرية التي كانت تعيشها الأقلية الإسرائيلية

تحت السلطة الفرعونية، لقد خضعت هذه الأقلية لحالة قمع سياسي، وإبادة جماعية من طرف أحد فراعنة مصر، بسبب خوفه من انتزاعها للحكم على مصر، سواء عن طريق القوة السياسية أم الدينية". (عبد العزيز خواجة، 2007، ص160).

3-5)- الدور الاجتماعي لـ"لأقليات النموذجية النافذة" إصلاحا وإفسادا:

سبق أن رأينا أن أيّ مجتمع من المجتمعات ينقسم إلى أقلية وأكثرية، والمجتمع بمجموعه ينقسم إلى ثلاث فئات، الفئة الأولى هي التي تتمتع بالنفوذ والسلطة، وهي الأقلية المُسيطرة، وهي بدورها تنقسم إلى قسمين، قسم يريد الإصلاح وآخر يريد الإفساد؛ وتبقى الفئة الثالثة التي تمثل الفئة العريضة من المجتمع؛ التي بدورها تنصاع إمّا للأقلية الإفسادية أو الإصلاحية، وقوة التأثير تكون على هذا المستوى بالذات، مُمثِّلةً قانون أو سنة الصراع بين الحق والباطل.

والشيء المُلاحظ أنه توجد مجموعة ثالثة ضمن تلك المجموعتين، سواء تلك التي تريد الإفساد، أو التي تريد الإصلاح، هي "الجماعة المُتذبذبة غير المستقرة"؛ وهي فئة غير قابلة لذلك الفساد على إطلاقه، إلّا أنها تنقاد لتلك الجماعة، إما تملُّقا أو ضعفا بسبب المصالح، ووجودها ضمن تلك المجموعة يخلق نوعا من التوازن في محاولة التقليل من ذلك الفساد، إذا عدنا إلى قصة يوسف وإخوته، نلاحظ أن هناك جماعة بين الإخوة لأب، تمثل قمّة التطرف في الحقد على يوسف وأخيه، وهي الجماعة التي صرّح بها كتاب الله حين قالوا: (اقْتُلُوا يُوسُفَ أَوِ اطْرَحُوهُ أَرْضًا) (يوسف/09). ثم وضّح لنا الله أن هناك شخصا واحدا كان له قوة التأثير في الاعتراض على عملية القتل، واقترح التّخلص منه عن طريق النفي والإبعاد برميه في البئر. وفي ذلك يقول الله جل جلاله: (قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لاَ تَقْتُلُوا يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِي غَيَابَاتِ الْجُبِّ يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ السَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَاعِلِينَ (10))، إن هذا الواحد يمثل نوعا من التوازن في تنفيذ الحكم، وهو أشبه بمؤمن آل فرعون الذي يكتم إيمانه في قصر فرعون، ويمثل نوعا من الاعتدال في الاحتجاج على موسى من جهة، وإقامة الحجة على فرعون وملئه من جهة ثانية، لذلك استفاض الله في ذكره في سورة غافر كما رأينا. وكذلك الأمر بالنسبة إلى المجموعة الثانية، مجموعة الصلاح والإصلاح، هناك أقلية ضمن المجموعة تخلق جوا من الاضطراب والتثبيط، بحكم خلل في العقيدة والخوف من العواقب؛ والتي يمكن أن نسميها بـ"الجماعة المتذبذبة" إن الله تحدث عن المنافقين وإثارتهم للفتن بين المؤمنين الصادقين، ثم قال عقِب ذلك وهو يخاطبهم: (وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ)، والآية بكاملها توضح المعنى العميق لظاهرة النفاق في المجتمع الجديد، حيث يقول الله تعالى: (لَوْ خَرَجُوا فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلاَّ خَبَالاً وَلأَوْضَعُوا خِلاَلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّاعُونَ لَهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ) (التوبة/47). وهو ما وقع فعلا حينما سحب زعيم المنافقين "عبد الله بن أبي بن سلول" ثلث جيش المسلمين وهم في طريقهم إلى "أحد". ويمكن للباحث أن يستخرج من نصوص القرآن والسنة النبوية وسيرة الرسول الكثير من الأمثلة المُماثلة الدالة على اطراد هذه الظاهرة في التاريخ الاجتماعي والسياسي البشري.

رابعا: "الأقليّة النموذجية النافذة" المرادفة لـ"لدولة العميقة" في الاجتماع السياسي المعاصر:

يمكن استخدام مترادفات للمصطلحات التالية التي تعبر عن "الجريمة المنظمة": "الأقليّة النموذجية النافذة" و"الأوليغارشية القطرية"، والأولغارشية الكوكبية"، أو "الدولة العميقة" القطرية والكوكبية، أو "العُصبة/Le Clan" أو "المافيا المالية السياسية" بالمفاهيم العلمية السوسيو- سياسية، وفي اللغة السياسية العملية المعاصرة:

4-1)- الدولة العميقة أو الطبقة الأوليغارشية (وطنيا ودوليا): التعريف والنشأة:

لقد عرفت الموسوعة الإلكترونية "ويكيبيديا" "الدولة العميقة" بأنها الدولة المُتجذّرة، أو دولة بداخل دولة، وبالإنجليزية: (Deep state) وهو وصف يُستخدم لوصف أجهزة حكم غير مُنتخَبة تتحكم بمصير الدولة، كالجيش أو المؤسسات البيروقراطية المدنية أو الأمنية، أو الأحزاب الحاكمة الموالية لها(https://ar.wikipedia.org/wiki/).

ويمكن أن نميز بين "الدولة العميقة" التي تعمل داخل الدول والمجتمعات الوطنية، كما بيناه أعلاه، وبين "الدولة العميقة" التي تعمل عبر شبكات عابرة للدول والمجتمعات الوطنية المُعوْلمَة الراهنة، وتسمى في الأدبيات الماركسية بـ "الأوليغارشية الكوكبية"، وهي تعمل في نواد مغلقة أو شبه مغلقة، ولها تأثير قوي على الطبقات الحاكمة في العالم فيما تقرره من سياسات في مجتمعاتها وعابرة للأوطان. وهي طبقة نافذة سياسيا من الأثرياء ذوي المصالح العابرة للأوطان.

وحسب موسوعة ويكيبيديا، كان أول من أنشأ كيانا أو أقلية سياسية نافذة في تاريخ الدولة الوطنية الحديثة اصطُلح عليها اسم "الدولة العميقة" عام 1923م، هو مصطفى كمال أتاتورك (1881-1930)، وعُرفت هذه الشبكة باسم "Derin Devlet" ومعناها "الدولة العميقة". وتتألف هذه الشبكة من عدة مجموعات من الشرطة وضباط القوات المسلحة، والبيروقراطيين (الإداريين) ومجموعات من رجال القضاء، وتقوم هذه الشبكة بالقيام بأعمال سرِّية، الهدف منها المحافظةُ على عِلمانيةِ الدولة التركية التي أنشأها أتاتورك، وقمعُ أيَّ أفكار أو حركات أو أحزاب التي من شأنها تهديد العلمانية.(https://sotor.com). ثم زاد وتوسّع هذا المفهوم في التسعينيات من القرن الماضي في تركيا دائما بنفس الأهداف، المُتمثّلة في المحافظة على عِلمانية الدولة التركية، وبرزت بعد ذلك تعريفات مُشابهة في كلٍّ من

الولايات المتحدة، مع إنشاء الوكالة المركزية للاستخبارات الأمريكية، وبدا أن "الدولة العميقة" تتمثل في شبكات السلطة السياسية في واشنطن، والسلطة الاقتصادية والمالية في وول ستريت، والتي تعمل على حماية مجموعة من شبكات المصالح المختلفة. (https://ar.wikipedia.org/wiki/).

4-2)- "الدولة العميقة"، مكوناتها، وإجراءات الحفاظ على مصالحها (وطنيا ودوليا):

من أهمّ أدوات عمل "الدولة العميقة"، لتحافظ على شبكات المصالح بداخلها، هو استخدام العنف خارج إطار القانون، وفي إطار حالات استثنائية، أي استخدام حق خرق القاعدة القانونية التي تندرج ضمن مُسمّى "منطق الدولة La Raison d'état/"، والتي يتمّ من خلال العمل بها اتخاذ العديد من الإجراءات الأمنية، بدعوى الحفاظ على الأمن القومي من الخطر الخارجي أو الداخلي، وأن هناك دائما عدوًّا متربصًّدا لابد من التأهب لصدّه عمّا يشكل للدولة من تهديد، وفي إطار ذلك تقوم الدولة بقمع المعارضين وكلِّ من لا يشعر بالرضا عن أداء الدولة بشكل عام، وسياسي بشكل خاص، ويكون الهدف هو إضفاء طابعا قانونيا على حالة الاستثناء، وبسبب هذا التناقض بالنسبة إلى التعامل مع القانون، لا بُدّ للدولة من اختلاق حالة من الخوف الشديد ودنوِّ العدو الوهمي؛ الأمر الذي يُبرّر للسلطة الحاكمة أفعالها، وهي المُمسكة بأجهزة ومؤسسات ومقدّرات الدولة، وتكون هذه الأفعال "مقبولة" بالنسبة إلى الشعب، فهي تُعطيها نوعا من أنواع الشرعية الخيالية، والتي من خلالها لا تتم المحاسبة القانونية لتلك الأفعال بعد انتهاء تلك الحالة. وليس بعيدا أن يتم استغلال المؤسسات الدينية التي تسيطر عليها الدولة لتبرير تلك الإجراءات من الناحية الدينية، حتى يتم إضفاء طابع "شرعي ديني" على ممارسات الدولة، الأمر الذي يدفع المواطنين إلى التزام الصمت. (إبراهيم السيد،_ https://rawabetcenter.com/archives/10366).

بجانب ذلك تقوم الجهات السّيادية "العسكرية مثلا"، بامتلاك العديد من الشركات الاستثمارية التي تعود عليها بالربح، وتكون جزءا من العمليات الاقتصادية. كما تقوم الجهات السيادية بالتوغل داخل الأجهزة الإدارية والتنفيذية داخل الدولة، مثل الحكم المحلي والمحافظات من خلال "تعيين ممثلين الدولة العميقة -عسكريين بصفة خاصة - في تلك الأماكن"، حتى تضمن أن جميع مفاصل الدولة تعمل بنفس الوتيرة وفي نفس الاتجاه ؛ إلى جانب تعيين الضباط المتقاعدين من الخدمة العسكرية في مجالس إدارات الهيئات والشركات المتعلقة بالبِنية التحتية والخدمات الأساسية. وكي تُستكمل هذه المعزوفة، فإنها تقوم بالحملات الدعائية في الإعلام، والتحريض وتوصيل رسائل السلطة للشعب بشكل مباشر وغير مباشر، والمساهمة في خلق الحيل والخداع وتضخيم العديد من القضايا الفرعية على حساب القضايا الكبرى، لتحريك الرأي العام في اتجاهٍ تحافظ به السلطة على مُقدّرات الدولة، ولن يكون هناك مجالات للشك في خضوع وسائل الإعلام المختلفة لأجهزة الدولة العميقة التي ترعى وتموِّل مثل ذلك الدور (إبراهيم السيد،_ https://rawabetcenter.com/archives/10366)، فهم يتفقون على تقاسم الثروة والامتيازات، والتناوب على السلطة، وتتم المنافسة فيما بينهم في بعض الأحيان. أما رجال الأعمال فإنهم يمثلون النُّخب الرأسمالية، ويحاولون استخلاص رأس المال، واحتكار الاستثمارات، واستمرار امتيازاتهم المالية. وأما عناصر المثقفين والتكنوقراط وفئات من الأكاديميين، فيُستتبعون أيضا للأقلية النافذة الحاكمة، لتُسهم بعلمها وخبراتها في عملية صياغة الدستور، ووضع القوانين والتشريعات التي تتلاءم ومصالح الأقلية النافذة، بذلك تصبح "الدولة العميقة" هي المُشرِّعة الوحيدة للقانون والمُنفّذة له في الوقت نفسه، وقد تستخدم القانون بطرق مختلفة وغير واضحة، لتقوم بتفسيرها بما يُحقق أهدافها ورغباتها، ومن صلاحيتها كما رأينا إيقاف العمل بالقانون لاتخاذ التدابير اللازمة وإعلان حالة الطوارئ، للدفاع عن الدولة ضد الخطر الذي يواجهها، وهذه الحالة تُسمى بحالة "تعليق القانون!!."

4-3)-من آليات عمل "الدولة العميقة" في القضايا الدولية ماضيا وحاضرا:

إن أهم شيء تقوم به الدولة العميقة خلال حدوث أزمات الحكم المرتبطة بأزمات الاقتصاد والاجتماع، هو إثارة الذعر بين المواطنين، بهدف اللجوء إلى إعلان حالة الطوارئ، وراء كثير من الاختلاقات أهمها: إمّا أن تفتعل أزمة الأقليات والزج بها في حروب جانبية وطائفية، واستخدامها كـ"كبش فداء"، وإمّا أن تفتعل أزمة حقيقية فتزجَّ بالمجتمع في حرب أهلية عارمة، ضمن إدارة الدولة عن طريق الأزمات، وهو ما سنوضحه فيما يلي:

أ)- "الدولة العميقة" واستخدام آلية القانون الدولي خلال الأزمات: تناول القانون الدولي حالة الطوارئ من خلال العهد الدولي للحريات المدنية والسياسية، الصادر عام 1966، إذ حدَّد الشرط الأساسي لفرض حالة الطوارئ في وجود خطر عام واستثنائي يتهدد وجود الأمة، على أن يتم إعلانُه بشكلٍ رسمي، منعا لشيوع المُمارسات الضارة بالحريات في أوقات ليس لها طابع الاستثناء، ويجب ألّا يكون ذريعة لحرمان الأفراد من حقوقهم الأساسية، مثل الحق في الحياة، وفي التفكير أو الاعتقاد، كما يجب ألّا يكون ذريعة للترخيص بالمُمارسات غير الإنسانية والماسّة بالكرامة الشخصية، أو التعذيب أو العبودية والاضطهاد.(https://www.aljazeera.net/encyclopedia).

ب)- "الدولة العميقة" وأثر استخدامها لقانون حالة الطوارئ في المنطقة العربية:

إن معظم الدول العربية بعيدة كلّ البعد عن احترام الحريات وحقوق الإنسان، ومتعسفة في توظيف حالة الطوارئ!!. ففي مصر مثلا، وجَد حُسني مبارك في فرض حالة الطوارئ، إثر اغتيال سلفه أنور السادات يوم 6 أكتوبر 1981، فُرصةً لإرساءِ دعائم نظامه وإدامته، فأبقى عليها طيلة فترة حكمه التي دامت ثلاثين سنة، ولم تُرفع حالة الطوارئ إلاَّ ربيع 2012. وكذلك بالنسبة إلى الرئيس السوري السابق حافظ الأسد (2000-1930) وابنه الرئيس الحالي بشار الأسد، حيث فرضَ نظامُ حزب البعث حالة الطوارئ عند استيلائه على السلطة عام 1963 وظل يُمددها نحو أربعة عقود تحت ذرائع مختلفة، قبل أن يرفعها عام 2012 بفضل الثورة التي اندلعت ضده عام 2011. ونفس الشيء يقال بالنسبة إلى الجزائر، حين لجأت القيادة العسكرية والنخب المدنية الموالية لها، لفرض حالة الطوارئ عام 1992، كعمل سياسي وأمني استباقي لتلافي أعمال الملاحقة والتصفية ضدها، والتي كانت بعد الزعامات "الإسلامية" تهدد بها، ولذلك تمّ إلغاء الانتخابات التشريعية التعددية الأولى في تاريخ الجزائر المعاصر، والتي أظهرت نتائجها فوزا واسعا للجبهة الإسلامية للإنقاذ، وبذلك أدخلت الدولةُ العميقة المجتمع الجزائري في حرب أهلية دموية لأكثر من عقدٍ من الزمان. ولم تُرفع حالة الطوارئ إلاَّ عام 2011 في عهد الرئيس السابق عبد العزيز بوتفليقة، في ظل ما سمي بثورات الربيع العربي الأولى (2020-2011).

4-4)- "الدولة العميقة" والتعصب المُستخدَم كـ"كبش فداء" ضد "الأقلية المُستضعفة":

يرى الفيلسوف جان بول سارتر أن التعصب ضد الجماعات الأخرى والعداء لها يعكس الخوف من الأوضاع الإنسانية القائمة، ويعتقد "سارتر" أن التعصب العرقي ليس مجرد خاصية تكمن في شخصية سوية لا تشوبها شائبة، وإنما يراه على أنه عرضٌ من أعراض نمط عام من أنماط الشخصية، وقد جرت محاولات بحثية عديدة لإيجاد صلة بين الشخصية والتعصب، لعل أبرزها ما قام به تيودور أدورنو (1903- 1969) وزملاؤه من مدرسة فرانكفورت اليسارية النقدية في العلوم الاجتماعية، بهدف دراسة العداء للسامية والتعصب العرقي الذي ظهر في ألمانيا النازية في الثلاثينيات في القرن الماضي، وقد افترض أدورنو أن اتجاهات الفرد السياسية والاجتماعية تُشكِّل نسقا مترابطا فيما بينها، يُعبر من ميولات عميقة في الشخصية" ويرى أدورنو أيضا: "أن الافراد المُستهدفين بالعدوان المُحوَّل، هم أولئك الذين يُنظر إليهم كأشخاص ضُعفاء، أو أقل مرتبة، مثل أفراد الجماعات العرقية، أو الجماعات الأقليات الذين لا يستطيعون المواجهة". يشير "أدورنو" وزملاؤه إلى أن مقياس العداء للسامية قد صُمّم لقياس الآراء النمطية السلبية التي تصف اليهود بأنهم مُختلفون عن غير اليهود، والاتجاهات التي تحثُّ على استبعادهم وقمعهم كوسيلة لحلّ ما كان يُعرف في أوروبا بمشكلة اليهود.(روبرت ماكلفين وريتشارد غروس، 2002، ص 252)

ومن جهته، يرى العالم النفساني زيجموند فرويد (1839-1856) الإحباط حالةٌ نفسية تنشأ عن إعاقة الفرد عن الوصول إلى هدف مرغوب عبر مصادر مختلفة، وقد يكون العدوان المباشر ضد مصدر الإحباط ممكنا في بعض الأحيان... وقد افترض عالم النفس الأمريكي جون دولارد (1980-1900) وزملاؤه - منطلقين في ذلك من منطلق فرويدي - أننا عندما لا نتمكن من الاعتداء على المصدر الذي سبب إحباطنا، فإننا نوجه عدواننا إلى هدف بديل، أو إلى "كبش فداء"، أمّا اختيارنا كبش الفداء فإنه لا يكون عشوائيا في العادة، وقد كان اليهود هم كبش الفداء في الثلاثينات والأربعينات في إنكلترا، ثم أصبح الهنود في الخمسينات والستينات هم كبش الفداء، ومنذ السبعينات أخذ الآسيويون والباكستانيون هذا الموقع، وهناك بحوث أخرى أكدت أن التعصب يتزايد بشكل ملحوظ في الظروف الاجتماعية والاقتصادية المُهدّدة.(روبرت ماكلفين وريتشارد غروس، 2002، ص 256).

فإن اختيار جماعة معينة في المجتمع دون غيرها كـ"كبش فداء"، يوحي بأن هناك أهدافا للعدوان الناتج عن الإحباط مشروعا، وقد أبدى هيرومان راوشنج (1982-1887) أحد كبار النازيين ملاحظة قال فيها: "لو لم يكن اليهودي موجودا لاخترعناه". إن ما قام به النازيون في ألمانيا في الحرب العالمية الثانية مع اليهود، هو نفس ما قام به فرعون مع يهود قوم موسى من بني إسرائيل، كما رأينا سابقا.

إن السياسة التي تنتهجها الدولة العميقة لتحقيق أهدافها الاستراتيجية تأخذ عدة أوجه سنحاول التعرض إلى خمسة نماذج وهي كما يلي:

4-4-1)- "الدولة العميقة" وتغييب الحقائق عبر اختلاق الحروب الأهلية عربيا: وهو ما يسمى أيضا بـ"الحرب الخلّاقة"، وهي بمثابة اختلاق فتنة عارمة تختلط فيها جميع الأوراق، فيُصاب الإنسان فيها بالذهول، وتغيب عنه جميع الحقائق، ولا يستطيع أن يفهم شيئا في موضوع الصراع، وهو ما وقع في عدة حِقب ودول، منها حقبة خلافة علي بن أبي طالب (661-599م) مع الانقلاب الأموي ضد الهاشميين، وما وقع في الجزائر أيام ما سُمّي بـ "العشرية السوداء" الدامية خلال التسعينيات من القرن العشرين، وما وقع ويقع حاليا في كلٍّ من سوريا وليبيا والعراق واليمن خلال العقدين الأخيرين من القرن الحادي والعشرين. .(روبرت ماكلفين وريتشارد غروس، 2002، ص 257).

4-4-2)- نماذج اختلاق "الدولة العميقة" للحروب ضد "الأقليات المستضعفة":

ويتوقف الحل الثاني بالاعتماد على ما لديها من أقليات، والزج بها في حروب طائفية وتحويلها إلى كبش فداء، باعتبارها الشريحة الأضعف في المجتمع، وإثارة الفتنة بينها وبين الأغلبية، سواء بهدف الانتقام أو افتعال مشكلات جانبية، يتم من خلالها تصريف الرأي العام عمّا يجب التفكير فيه، وهذه نماذج من تلك السياسات:

4-4-3)- نموذج سياسة افتعال الصراعات الطائفية انتقاما وتغليطا للرأي العام:

غالبا ما تحاول السلطة الفاسدة توظيف الأقلية المستضعفة لأغراضها الدنيئة، وفي حالة ما تمرّدت تلك الجماعة، فإنه يسهل عليها الزج بها في حروب طائفية جانبية، وأحسن مثال لذلك ما قام به المستدمر الفرنسي الغاصب حين افتعل - في سياق مفاوضات إيفيان الجارية آنذاك - فتنة طائفية عِرقية بين مزابيي وعرب مدينة ورقلة، في الجنوب الجزائري، "في سبتمبر 1960، حيث أشعل المستعمرون وأذنابُهم فتنة عمياء بين بني ميزاب وإخوانهم العرب في مدينة وارجلان (ورقلة) بتحريض من بعض السُّذج من العرب على ممتلكات الميزابيين، فنهبوا وخرّبوا وجرّحوا وقتلوا شابًا من القرارة كان يقوم بعلاج زوجته هناك، المسمى سليمان بوعَصْبانه بكير بن باحمد". في هذا الصدد قال الأستاذ محمّد سليمان أبو العُلا: "لقد قام الشيخ بيوض بدور فعّال في إطفاء الفتنة بإلقاء درس قيّم جريء بعد جنازة المقتول في القرارة، استغرق عدة ساعات، ألقاه على الجمهور من بني ميزاب والعرب معًا (في ساحة المقبرة)، بصّرَ الناس فيه بعواقب الفتنة وخطورتها، وكشف لهم خطط الاستعمار التفريقية ونواياه الدفينة، وردّ فعله إثر فشله في محاولة فصل الصحراء، وكان لهذا الدرس الأثر البالغ في نفوس جميع المتساكنين. (محمد سليمان أبو العلا، 2009-2010- ص94 وص203 و220).

بيت القصيد من هذه الحادثة المُدبرة سببها وقوف الشيخ بيوض إبراهيم (1899-1981) أحد أهم القيادات الدينية والسياسية للمجتمع المزابي في وجه المُستدمر الفرنسي ضد مشروع "فصل الصحراء الجزائرية عن الشمال الجزائري"، بينما كان الزعيم الفرنسي الجنرال شارل ديغول (1890-1970) يُراهن على استمالة الأقلية المزابية للمشروع الفرنسي لإنشاء "جمهورية الصحراء"، مراهنا على بعض عوامل الاختلاف بين سكان المنطقة، مركزا على: "أن المجتمع المزابي يختلف تمام الاختلاف عن كافة المجتمع الجزائري، إنه لا يمكن أن نعتبر المجتمع المزابي المُتميِّز ذي الأصل الأمازيغي، المُتمذهب بالمذهب الإباضي، والفرد من أفراده كبقية غيره من بقية الأفراد الجزائريين" ؛ ففي مقابلة مع الأستاذ محمد بن إبي إسحاق اطفيش المنفي من طرف فرنسا إلى مصر، ذكر أن أباه أبو إسحاق عانى معاناة كبيرة من علماء الأزهر، بسبب تعصُّبهم المذهبي واعتراضاتهم الكثيرة على الفكر الإباضي. وهذه الفكرة تتعلق بالصورة النمطية السلبية والمشوهة المُلصقة بالفكر الإباضي المتهم بالفكر الخارجي. (محمد بن الشيخ أبي إسحاق اطفيش(مقابلة)، 1991). وهو الرهان الذي أراد من ورائه الجنرال شارل ديغول كسب معركة التقسيم ضد مجاهدي ومفاوضي جبهة التحرير الوطني، إلّا أن الإمام الشيخ بيوض إبراهيم وقف موقفا حاسما أمام مشروع التقسيم، مقاوما جميع التهديدات والإغراءات؛ ولما يئس المستعمر لجأ إلى افتعال فتنة أهلية ورقلة.

وبالمثل، مع فارق في الزمان والمكان والأقلية النافذة الفاعلة، لجأت "الدولة العميقة" في الجزائر المعاصرة خلال (2013 - 2015)، إلى افتعال صراعات طائفية في غرداية بين مواطنين من أصول مزابية إباضية وعربية مالكية متعايشة قرونا، بهدف التهديد وتغليط الرأي العام لتمرير رسالتين، تتمثل الأولى في تذكير جميع المواطنين الجزائريين بالمصير والأيام العصِيبة التي مرّت بها البلاد أيّام العشرية السوداء، وتتمثل الرسالة الثانية في تمرير العُهدة الرابعة للرئيس عبد العزيز بوتفليقة (1937-2021م).

4-4-4)- نموذج عن سياسة ملاحقة تنظيم "داعش" للطائفة الأيزيدية العراقية:

استطاعت مُخابرات الدول الغربية، بمشاركة كلّ من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وغيرها وحليفها جهاز الموصاد الإسرائيلي، إنشاء منظمة إرهابية "داعش" (تنظيم الدولة الإسلامية في العراق والشام)، بهدف تغليط الرأي العام العالمي، وتقديم رسالة تمثل من خلالها الإسلام أسوء تمثيل، ومن جملة العمليات التي قامت بها "داعش" أنها أبادت الأقلية الأيزيدية في العراق، ونددت حينها المنظمات العالمية لحقوق الإنسان بتلك التصرفات ؛ ففي تقرير نشرته منظمة كِنيات والفدرالية الدولية لحقوق الإنسان، بتاريخ 25 أكتوبر 2018 باريس، استناداً إلى استنتاجات ميدانية، يصف التقرير كيف قام تنظيم "الدولة الإسلامية في العراق والشام = (داعش)" بتشريع، وتنظيم، والتخطيط للاتجار بالأيزيديين الأسرى في العراق وسوريا. ويدعو التقرير إلى ملاحقة المقاتلين الأجانب قضائيا من قبل المحاكم الوطنية والدولية، بتهم ارتكاب جرائم جنسية ترقى إلى إبادة جماعية وجرائم ضد الإنسانية، في سياق اقتصرت فيه استجابة السلطات حتى الآن على مكافحة الإرهاب. وجاء فيه أنه عندما استولى تنظيم "داعش" على الموصل في 10 يونيو/حزيران 2014، شرع في حملة لـ "تطهير" المنطقة من مجتمعاتها "غير الإسلامية" والشيعية. وفي 3 أغسطس/آب 2014، هاجم مقاتلو "داعش" منطقة سنجار، مما أجبر 130,000 من الأيزيديين على الفرار صوب المناطق الكردية. ومع عدم وجود مكان آخر يلوذون به، أُجبر عشرات الآلاف منهم على اللجوء إلى جبال سنجار، في ظل ظروف بالغة السوء. ومات ما لا يقل عن 1,700 شخص بسبب نقص المياه والطعام والظل والمُعدات الطبية.

وكان هجوم سنجار بداية لحملة وحشية للقضاء على القومية الأقلياتية الأيزيدية، انطوت على انتهاكات ارتُكبت على نطاق واسع، وإرغام على التحوّل إلى الإسلام، وفصل للعائلات واسترقاق للنساء والأطفال الناجين الذين تمّ اعتبارهم "غنائم حرب". وترقى تلك الحملة إلى إبادة جماعية وجرائم ضد الإنسانية، وفقاً للفدرالية الدولية لحقوق الإنسان ومنظمة كِنيات. ونُشر تنظيم "داعش" إعلاميا على نطاق واسع الجرائم المُرتكبة ضد الأيزيديين، مُستخدما إياها كدعاية لجذب مجندين جُدُد، ولترويع المدنيين.

تم إضفاء الشرعية على هذه الجرائم مُسبقاً من خلال سلسلة من المفاهيم الدينية بما في ذلك مفهوم "السبايا" (أسر واسترقاق نساء وأطفال غير المؤمنين). وتمّ تطوير هذا الخطاب في مجلات التنظيم، وكذلك في الدراسات الدينية التي كُرست خصيصاً لمسألة الاسترقاق، مع التركيز بشكل خاص على الاسترقاق الجنسي(https://www.fidh.org/ar) ؛ تحت شعار: "العنف الجنسي المرتبط بالنزاع"، بتاريخ 17 جويلية 2020، نُشر مقال صحفي باسم الأمم المتحدة جاء فيه ما يلي: "عمد داعش إلى استرقاق أكثر من 6،500 من النساء والأطفال وتسبب العنف بتشريد أكثر من 350،000 في مخيمات النزوح شمالي العراق. ولا يزال أكثر من 120،000 ممن عادوا إلى ديارهم يواجهون مصاعب تحُول دون إعادة بناء حياتهم، كما تعيش غالبية الأفراد بدون خدمات حيوية منذ صيف عام 2014، بما في ذلك الرعاية الصحية والتعليم ودعم سُبل العيش"(https://news.un.org/ar/story/).

وقالت الناشطة الأيزيدية وسفيرة مكتب الأمم المتحدة المعني بالمخدرات والجريمة للنوايا الحسنة، "نادية مراد"، إن الأقلية الأيزيدية كانت تعيش بسلام قبل ظهور داعش. وبسبب داعش فقدت مراد والدتها وستة من أشقائها وبنات إخوتها، وتم أسر بقية أسرتها.

كما قامت جماعة داعش بحرق منازل ومدارس الأيزيديين ودور عبادتهم، وتمّ الاتجار جنسيا بفتيات بعُمر الثامنة والتاسعة. وحتى الآن ثمّة أكثر من 2،800 امرأة وطفل إيزيدي في عداد المفقودين وفي الأسر. وأشارت الناشطة الأيزيدية إلى أنه بعد ستة أعوام لم يتحرّك العالم لنجدة الأيزيديين: "لقد تفرّج العالم بغضب، وطالب بتحرّك ملموس لإنهاء الإبادة الجماعية، ولكن بعد ستة أعوام فشل المجتمع الدولي في الوفاء بالتزاماته في حماية الأقلية الأكثر ضعفا"(https://news.un.org/ar/story/).

إلى هنا نكتفي بهذه الأمثلة الدالة على استخدام العمل الإفسادي للأقليات المستضعفة من طرف "الأقليات النافذة" أو "الدولة العميقة" وتأجيج الحروب بكل أشكالها أُسَرية وأهلية وإقليمية ودولية، بغية استدامة تقاسمها للثروة والسلطة، وهي أمثلة تتوالد عبر التاريخ الاجتماعي السياسي القديم والحديث.

خاتمة:

إن التساؤل المطروح في مقدمة هذا المقال يتمحور حول ماهية الأقليات بصفة عامة؟ وما هي ضرورة وجودها في هذا العالم وما المقصود بـ"الأقليات المستضعفة"، و"الأقليات النافذة" المعروفة قرآنيا بـ"الملأ" وسوسيولوجيا باسم "الدولة العميقة"؟ إن سنة الاختلاف التي اودعها الله بين البشر، هي التي أفرزت قانون الأقلية والأغلبية بصفة عامة، وهو القانون الذي يحكم العالم بما يتضمن من أجناس وحيوانات وغازات ومواد طبيعية، وحتى الأغذية التي يتقوّت منها الإنسان، كل شيء في هذا العالم خاضع لقانون القلة والكثرة، إلّا أن المشكلة الأساسية لهذا الكون هو في الإنسان حين جعله خليفة في الأرض!!. بما يتمتع من غرائز وشهوات تحمله على الفساد وسفك الدماء، وهو ما يفسر السؤال الذي طرحته الملائكة لله عند بدء الخلق حين قالت: (أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ؟) فأجاب لهم بقوله: (قَالَ إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ30)). إن أقرب تفسير لظاهرة الصراع الدائر في الأرض، هو إناطة مفهوم الاستخلاف بعاملين أساسيين: وهما كلٌّ من العامل السياسي والاقتصادي كما جاء ذلك في كتاب الله، إن مشكلة الحكم وما يترتب عنه من امتيازات تجعل صاحبه يتسلط على رقاب الناس وممتلكاتهم بدافع الغرائز التي تتحكم فيه، ومن حكمة الله، أنه لم يخلق الإنسان سُدًى، لقد خلق له مقابل تلك الغرائز ضميرا يُبصِّره بعواقبه الوخيمة في حالة الانحراف، ورسم له طريقا يسير عليه بأن جعل له قوانين وشرائع تضبطه وتُردعه عن الفساد في الأرض، وأرسل إليه إزاء ذلك رسُلا وأنزل عليه كُتبا حتى يحقّق مهمة الاستخلاف على أحسن وجه، ولكن بموجب نزعتي الخير والشر التي أودعها الله فيه يقع الشّد بين حماة أهل الحق وأهل الباطل، ويؤول ذلك الشد إلى الصراع الذي عاشته الإنسانية ماضيا وتعيشه حاليا وستعيشه مستقبلا، على هذا المستوى تتحقق عملية التفاعل والجدل الديالكتيكي بين أهل الإصلاح وأهل الباطل، ويبقى الصراع مُحتدما بين الحق والباطل إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

لقد أثبتت الدراسات العلمية أن عملية التغيير بالنسبة إلى الإصلاح الاجتماعي أو الإفساد الاجتماعي مرتبطة بالعامل النوعي وليس بالعامل الكمّي، إن المجتمع المترامي الأعداد تتحكم فيه أقليتان، إما أن تكون أقلية إصلاحية من أنبياء ورسل وأتباعهم الذين ساروا على هديهم، أو أقلية إفسادية مسيطرة تسمى سوسيولوجيا باسم "الدولة العميقة"، أو "الطبقة الأوليغارشية" بالتعابير السوسيولوجية المعاصرة، وقد اصطلح عليها كتاب الله بالملأ المستكبر، ويتراوح عدد

تلك الأقليتين (الإصلاحية أو الإفسادية) ما بين 03 إلى 05 % فقط، ويبقى المجتمع المتسم بثقافة القطيع ينساق وراء تلك الأقليتين، وإذا تساءلنا كيف عالج وشخَّص القرآن موضوع صراع الأقليات داخل المجتمعات وفي المجتمع العالمي؟

إن الله عز وجل ساق لنا في كتابه الكريم قصة فرعون، وهي تمثل أحسن نموذج يوضح فلسفة الأقليات بصفة عامة، سواء بالنسبة إلى الأقلية الإفسادية أو الإصلاحية، وحتى المُستضعفة، إن الأقلية النافذة الإفسادية المتمثلة في"الملأ المستكبر"، تنحصر في كلٍّ من فرعون المتجسد على هرم السلطة، ويحيط به كلٌّ من وزيريه هامان وقارون، إضافة إلى الكهان والسحرة، ثم ابتعث الله أقلية إصلاحية تتمثل في كلٍّ من نبي الله موسى وزوجة فرعون والرجل المؤمن الذي يكتم إيمانه في قصر فرعون، ويقابل تلك الأقليتين (الإصلاحية والإفسادية) أقلية ثالثة مُستضعفة، تتمثل في المجتمع الإسرائيلي، أما المجتمع الفرعوني فهو مُستخفٌّ به ومُنساق وراء الإعلام الفرعوني الذي يسوقه سوق القطيع، وتنتصر في الأخير الأقلية المستضعفة على المستكبرة بقدرة قادر وفق سنة الله في الكون... إن استغلال فرعون للأقلية المستضعفة في البيئة المصرية ضمن النموذج القرآني قبل أكثر من ألف عام، هو نفسه بالنسبة إلى استغلال الدول العظمى للدول الفقيرة والمستضعفة ماضيا وحاضرا ومستقبلا.

إن أهم ما يجعل الدولة العميقة تحتفظ بمصالحها فإنها تلجأ إلى استخدام العنف خارج إطار القانون، وفي إطار حالات استثنائية، ضمن مُسمّى "منطق الدولة /La Raison d'état"، فيتسنى لها قمع المعارضين وكلّ من لا يشعر بالرضا عن أداء الدولة بشكل عام وسياسي بشكل خاص، وقد تلجأ الدولة العميقة إلى افتعال أزمة حقيقية، فتزجَّ بالمجتمع في حرب أهلية عارمة عن طريق ما يسمى بـ"إدارة الدولة عن طريق الأزمات"، وقد تختلق صراعا وهميا وتفتعل أزمة الأقليات كـ"كبش فداء" مثل ما فعلت الحركة النازية في ألمانيا مع اليهود، وهو ما قامت به مُخابرات الدول الغربية، بمشاركة كلّ من الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا وحليفها جهاز الموصاد الإسرائيلي، إنشاء منظمة إرهابية "داعش" حيث قامت هذه الأخيرة باستغلال الأقلية الأيزيدية المستضعفة في العراق، وأقدمت على حرق منازلهم ومدارسهم ودور عبادتهم، وتمّ الاتجار جنسيا بفتياتهم، بهدف تغليط الرأي العام العالمي، وعرض رسالة الإسلام أنه دين إرهاب وقتل وسفك للدماء.

ختاما، نؤكد على صحة الفرضية التي انطلقنا منها: "إن التاريخ الاجتماعي السياسي للمجتمعات والدول قديما وحديثا، يتلخص في تتالي سيرورة صدام الأقليات النافذة والمستضعفة!! .

قائمة المراجع

أولا– توثيق الكتب

- القرآن الكريم.
- العلواني، طه جابر. (2006)، أزمة الإنسانية ودور القرآن الكريم في الخلاص منها، سلسلة دراسات قرآنية رقم1، ط1، بيروت: مكتبة الشروق الدولية.
- بابكر، عبد الرحمان. (2017)، "إشكالية استعجال النصر في الحركات الإسلامية المعاصرة، وانعكاسه على مهددات السلم المدني وإثارته للفتن الداخلية، ومنهجية كلٍّ من القرآن والسنة والسيرة النبوية في التصدي لها وعلاجها"، دراسة حالة المجتمع الجزائري، ضمن سلسلة الوعي الحضاري في الفكر الإسلامي، رقم (04)، الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع.
- بابكر عبد الرحمان، (2017)، العلاقة بين سورة الفاتحة وما يقع من أحداث في العالم العربي والإسلامي في الظرف الراهن، ضمن سلسلة الوعي الحضاري في الفكر الإسلامي، رقم (02). الجزائر: دار قرطبة للنشر والتوزيع.
- جودت، سعيد. (بدون سنة النشر)، اقرأ وربك الأكرم، أبحاث في سنن تغيير النفس والمجتمع، طبعة أولى، الجزائر، غرداية: المطبعة العربية.
- عويس، عبد الحليم. (بدون سنة النشر)، الفكر اليهودي، بين تأجيج الصراعات وتدمير الحضارات، دون ذكر بلد الطبع: مطبعة عالم الأفكار.
- الزُّحيلي، وهبة. (2018)، التفسير المنير في العقيدة والمنهج، جزء1، ط01، سوريا، دمشق: دار الفكر.
- محمد رشيد، رضا. (2013)، تفسير المنار، ج01، مصر، القاهرة: المكتبة التوفيقية.
- بن عاشور، محمد الطاهر. (2007)، التحرير والتنوير، ط1، دون ذكر بلد الطبع: مؤسسة التاريخ.
- قطب، سيد. (1967)، في ظلال القرآن، المجلد الأول، ط38، مصر: دار الشروق.
- حمدي، محمد بن صالح. (2016)، نظرية الاستخلاف في الأموال في الاقتصاد الإسلامي، القرارة، غرداية: نشر جمعية التراث.
- ابن منظور. (1417هـ / 1997)، لسان العرب، الجزء 11، الطبعة 6، بيروت: دون ذكر دار النشر.
- سعد الدين، إبراهيم. (1994)، الملل والنحل والأعراق، هموم الأقليات في الوطن العربي، ط2، مصر، القاهرة: مركز ابن خلدون للدراسات الإنمائية.

- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان. (2008)، سير أعلام النبلاء، وبهامشه أحكام الرجال في ميزان الاعتدال، ج 04، دون ذكر بلد الطبع: مكتبة الصفا.
- خواجة، عبد العزيز. (2007)، أنماط العلاقات الاجتماعية في النص القرآني، دراسة سوسيولوجية لعمليات الاتصال في القصة القرآنية - قصة موسى عليه السلام تطبيقا، سوريا، دمشق: صفحات للدراسات والنشر والتوزيع.
- المسيري، عبد الوهاب. (1999)، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، الجزء الأول، ط5، مصر، مدينة نصر، القاهرة: دار الشروق.
- ماكلفين، روبرت. وغروس، ريتشارد. ترجمة: حداد، ياسمين. الحمداني، موفق. حلمي، فارس. (2002)، مدخل إلى علم النفس الاجتماعي، الطبعة الأولى، الأردن، عمان: دار وائل.
- رزيق المخادمي، عبد القادر. (2008)، الشرق الأوسط الجديد بين الفوضى الخلاقة وتوازن الرُّعب، الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.
- اللايذ، طاهر إبراهيم. (2012)، الشرق الأوسط والفوضى الخلاقة، ط1، الأردن، عمّان: دار أسامة للنشر والتوزيع.
- أبو العُلا، محمّد سليمان. (2009-2010)، صفحات من الكفاح، خاص بالشيخ بيوض والاستعمار الفرنسي في الجزائر، القرارة، غرداية، الجزائر: جمعية التراث.

ثانيا – توثيق المحاضرات والمقابلات

- سويدان، طارق. (2007)، محاضرة في تجمع لمنظمة الاتحاد الطلابي الحر، بجامعة بومرداس، الجزائر، السنة الدراسية الجامعية.
- اطفيش، محمد بن الشيخ أبي إسحاق. (1991)، مقابلة، أجراها عبد الرحمان بابكر، في القاهرة.

ثالثا– توثيق المواقع الالكترونية

- حركة عالمية لحقوق الإنسان/ FIDH، تقرير العراق بتاريخ 2018/10/25، "العنف الجنسي ضد الأيزيديين: يجب محاكمة المقاتلين الأجانب في "داعش" على ارتكاب إبادة جماعية وجرائم ضد الإنسانية"، الموقع https://www.fidh.org/ar، تاريخ التصفح: 2021/07/17.
- أخبار الأمم المتحدة، "الأمم المتحدة وجرائم داعش ضد الإنسانية تحت شعار "العنف الجنسي المرتبط بالنزاع""، بتاريخ 17 جويلية 2020، الموقع: https://news.un.org/ar/story/، تاريخ التصفح: 17 جويلية 2021.
- موسوعة الحرة ويكيبيديا، مادة أقلية نموذجية، https://ar.wikipedia.org/wiki، تاريخ التصفح:2021/06/27.
- روان سامي، الموسوعة العربية الشاملة، الموقع: https://www.mosoah.com/references/dictionaries-and-encyclopedias، تاريخ النشر: 29 نوفمبر 2019، تاريخ التصفح: 2021/07/06 .
- صفحة "سطور كوم"، "مفهوم الدولة العميقة"، الموقع: https://sotor.com ، تاريخ النشر: 21 يناير 2020، تاريخ التصفح: 2021/06/23.
- السيد، إبراهيم. "ما هي الدولة العميقة؟"، منشورات مركز الروابط للدراسات الاستراتيجية والسياسية، الموقع: https://rawabetcenter.com/archives/10366، تاريخ التصفح: 2015/08/02.
- موقع الجزيرة الوثائقية، "حالة الطوارئ، صلاحيات استثنائية"، الموقع: https://www.aljazeera.net/encyclopedia، تاريخ النشر: 2015/11/26، تاريخ التصفح: 2021/07/10.

كيفية الاستشهاد بهذا المقال حسب أسلوب APA:

بابكر، عبد الرحمان. وزازون، آكلي. (2022)، **دور الأقليات النافذة والمستضعفة وأثرهما في تحريك دواليب الصراع الإقليمي والعالمي: من منظور قرآني وسوسيو-سياسي**، دفاتر السياسة والقانون، المجلد 14 (العدد02)، الجزائر: جامعة قاصدي مرباح ورقلة، ص.ص328 - 347